إسحق موسى الحسيني

مذكرات دجاجة

رواية

كتاب الدوحة

يُوزَّع مجّانًا مع العدد (123) من مجلّة «الدوحة» - يناير - 2018

عنوان الكتاب: مذكرات دجاجة (رواية)
المؤلف: إسحق موسى الحسيني

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف: غوستاف كليمت - النمسا (1862 - 1918)
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

إسحق موسى الحسيني

مذكرات دجاجة

رواية

كتاب الدوحة

دجاجة فلسطين

هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة، ماذا أقول! بل هي دجاجة مفلسفة تدرس شؤون الاجتماع في كثير من التعمق وتدبر الرأي، فتصل إلى استكشاف بعض الأدواء الاجتماعية وتصف لها الدواء، ماذا أقول! بل هي دجاجة شاعرة تجد ألم الحب ولذته وعواطفه المختلفة التي تدق أحيانًا حتى لا يهتدي إليها إلّا الشعراء الملهمون ولا يقدر على تصويرها إلّا الذين أوتوا حظًا من سحر البيان! بل هي دجاجة رحيمة تعطف على الضعفاء والبائسين وترق للمحرومين وتؤثرهم على نفسها وإن كان بها خصاصة؛ وهي على هذا كله بليغة فصيحة تفكر فتحسن التفكير وتؤدي فتجيد الأداء. ومن المحقق أن هذه الدجاجة تشعر شعور الناس وتفكر تفكيرهم

وتعبر كما يعبرون، وقد كنا نظن أن عيوب الناس مقصورة عليهم حين تتصل بالأخلاق الفردية والاجتماعية، فإن هذه الدجاجة تبين لنا أن عيوب الناس شائعة في نوع من أنواع الحيوان هو الدجاج، وأن محاسن الناس- وهي قليلة- تشاهد أيضًا في هذا النوع من أنواع الحيوان وهو الدجاج.

وكذلك كشفت لنا هذه الدجاجة عن نظراء يشاركوننا في لذاتنا وآلامنا وفي محاسننا وعيوبنا. وهي في ذلك تشبه تلك الحيوانات التي تحدثت في كليلة ودمنة منذ قرون طوال. ومن يدري؟ لعلها تتحدث كما تحدثت تلك الحيوانات جاعلة من نفسها رمزًا لنا معربة عما لا نستطيع نحن أن نعرف عنه حين نريد أن نصور حياتنا ونصف ما فيها من العيوب والأدواء. وهذه الدجاجة فلسطينية وقد كتبت مذكراتها في أكبر الظن بلغة الدجاج، وعلى هذا النحو الذي يصطنعه هذا النوع حين يكتب نبشًا أو تصويرًا على ضروب من الصحف لا نعرفها نحن، والله عز وجل قادر على كلّ شيء، وقد علَّم سليمان عليه السلام منطق الطير ولغة الحيوان، وكأنه علَّم صديقنا الدكتور إسحق الحسيني لغة الدجاج، فقد قرأ مذكرات هذه الدجاجة الفلسطينية ففهم عنها أحسن الفهم وترجم عنها أحسن الترجمة، وقرأنا نحن ترجمته هذه فشاركنا دجاجة فلسطين فيما أحست من حزن وفرح ومن لذة وألم. ورأينا- وما أعجب ما رأينا- أن دجاجة فلسطين تجد من حب الخير وبغض الشر، والطموح إلى المثل العليا في العدل الاجتماعي وفي العدل الدولي وفي كرامة العروبة وحقها في عزة حديثة تلائم عزتها القديمة ما يجده كلّ عربي من أهل فلسطين بل من أهل الشرق العربي كله؛ فليت شعري أيهما ترجم عن صاحبه!! ترجم الدكتور إسحق الحسيني عن الدجاجة أم ترجمت الدجاجة عن إسحاق

الحسيني؟ وأي غرابة في ذلك؟ لقد مضت سنة الشعراء من العرب على أن يشاركوا الحمائم في الحب والحنين والأسى، فيترجمون عنهن حينًا، ويزعمون أنهن يترجمن عنهن حينًا آخر:

أبنات الهديل أسعدن أو عد ـــنَ قليل العزاءِ بالإسعـــــادِ
إيـــه لله درُّكُـــــنّ فأنتـــ ــنَّ اللواتي تُحسِنَّ حِفْظَ الودادِ

فما يمنع الدكتور إسحق الحسيني أن يتجاوز بهذا الفنّ حمام القدماء إلى دجاج المحدثين!

أما بعد؛ فإني سعيد حين أرحب بهذا الكتاب بين أجزاء هذه السلسلة لأنه كتاب صديق كريم؛ ولأنه كتاب أخ من أهل فلسطين ولأن في صدوره بين أجزاء هذه السلسلة بَرأ بما وعدنا به من جعل هذه السلسلة وسيلة من وسائل التعاون الثّقافي وأداة من أدوات الوحدة الفكرية بين أهل الوطن العربي كله.

فلصاحب هذه القصة تحية المحب الذي ينتظر لفنه مستقبلًا باهرًا وينتظر منه خيرًا كثيرًا.

طه حسين

تقديم الرواية في طبعتها الأولى
ضمن سلسلة اقرأ
دار المعارف القاهرة 1943

من أعلام القدس

كان معهد الدراسات العربيّة العليا (معهد البحوث والدراسات العربيّة اليوم) الذي انتسبتُ إليه في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي يشغل بناءً عريقًا في حي من أحياء القاهرة. سكنه، على ما يبدو، بعض رجال الاحتلال الإنجليزي يُعرف بحي (جاردن سيتي) على مقربة من مشفى (قصر العيني)[1] الذي يعود بشهرته، في ميدان الطب إلى أيام محمد علي.

وقد أنشأ المعهد الأستاذ ساطع الحصري؛ فأنشأ إضافة إلى غرف البناء قاعة كبيرة في الحديقة، جعلها مدرَّج المعهد الكبير ليسع طلبة المعهد، في فروع الدراسة كلها.

(1) نسبة إلى أحد رجال المماليك كان يملك القصر، أو يقيم في مكانه.

وكان قسم البحوث والدراسات الأدبيّة والنقدية الذي انتسبتُ إليه، يرأسه ويدير شؤونه الدكتور إسحق موسى الحسيني، صاحب «مذكرات دّجاجة» التي نشرتها دار المعارف في سلسلة (إقرأ)[1]، واكتسبت شهرة واسعة، وقرأها له أناس كثيرون منا. وكنا نعرف أنه من فلسطين، ومن إحدى أسرها العريقة في بيت المقدس، ونعرف أنها قادت فيها حركة النضال ضد الحركة الصهيونية. وكان بعضنا لا يخفي اطلاعه على ما كان يطفو على سطح الأحداث فيها، من نزاع آل الحسيني وآل النشاشيبي، في بعض مراحل النضال وزعامته السياسية.

كان الدكتور الحسيني دقيق السمات، نبيل الطلعة، ربع القامة، أنيس الخطو، جميل الحضور، تولى تدريس الأدب في عصر النهضة الحديثة، في المرحلة الأولى من عمله في المعهد، مع إجمالٍ لأهم خصائص الأدب في الفكر الحديث، وعرضٍ لأهم خصائص الفنون الأدبيّة. ووقف من بعد، على أديبين ومفكرين كبيرين معاصرين فلسطينيين من القدس هما: خليل السكاكيني، وإسعاف النشاشيبي.

وبدا منذ ساعاته الأولى حريصًا على رد قولة المستشرق (جب) التي رددها بعض مؤلفينا وكتّابنا، عن أثر غزوة نابوليون مصر (1897) في هتك حجاب الجمود الذي فصل العالم العربي عن الحياة الأوروبية الحديثة، وأخرجها من حياة القرون الوسطى، وهيأها لدخول عصر النهضة، بتأثير أوروبة على نظمها الاجتماعية والسياسية.

(1) العدد 8 من السلسلة. وقد قدّم لها الدكتور طه حسين، فوقف طويلًا عند دجاجة الدكتور الحسيني، وسمّاها باسم «دجاجة فلسطين».

وكان رده، يومذاك، يقوم على كلام الأستاذ ساطع الحصري[1]، في الردّ على هذا الزعم، وتفنيد حججه، والوقوف على غاية الحملة الاستعمارية، وإثباتها عن طريق تقارير نابوليون نفسه، عن «امتلاك مصر إلى الأبد»، وتقارير الجبرتي عن تعذيب المصريين على أيديهم بعد أن تحطم الأسطول الفرنسي في (أبي قير). وانتهى إلى القول: إنّ القائلين بتأثير هذه الحملة في النهضة يشبهون من يقول: «إن صياح الديك هو السبب الموجب لشروق الشمس»! وانتهى الدكتور إسحق موسى الحسيني، في محاضراته، بعدها، إلى العوامل التي صانت الأدب العربي في عصور الانحطاط، ومنها تفتُّح البذور التي أُلقيت في عهد المماليك، في العصر التركي، وانحسار حكم الأعاجم عن بعض البلاد العربيّة، وأثر الإسلام والقرآن الكريم في حفظ اللّغة العربيّة، وقوة التراث العربي الذي أثر في الفاتحين، وغلبهم على أنفسهم.

وعرض الحسيني بعدها للعوامل الفعالة في تجديد الأدب العربي: طاقته الفنيّة القوية، واستجابته لعوامل الحياة الحديثة، وحركة النهضة في عهد إسماعيل، وإرسال البعثات، واستقدام الخبراء، وتنشيط حركة الترجمة، وإنشاء مدرسة الألسن والمدارس الأجنبية، إلى جانب انطلاق حركة الطباعة وانشاء الصحف والجمعيات والأندية والجامعات، إضافة إلى اليقظة القومية وتطور أجهزة الإيصال.

ووقف على المسالك والمناهج التي اتُبعت في دراسة الأدب الحديث، مثل المنهج الفكري في دراسة الاتجاهات، والمنهج التاريخي في دراسة مظاهر التطور عبر المراحل التاريخية، ووصل هذه المناهج بالكتب التي اتبعتها:

(1) انظر كتابه: (آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع) ص50.

مثل «الاتجاهات الأدبيّة في العالم العربي الحديث» لأنيس المقدسي و«تاريخ آداب اللّغة العربيّة» لجرجي زيدان، ولم يغفل عن نقد مسلك الأب لويس شيخو اليسوعي، في كتابه «شعراء النصرانية» لميله عن استقامة المنهج. واستمر في عرض اختلاف الأدباء حول تحديد المراحل التاريخية، ورجالها، وتفصيل خصائصها، في مصر وسورية ولبنان خاصة. وسمَّى الصحف والمجلات التي أنشئت فيها، ونصَّ على ظهور بعض الفنون الأدبيّة الحديثة التي رافقت إنشاءها، وسمَّى بعض أعلام رجالها ومؤسسيها على اختلاف مناهجهم، وتعاقب الأدوار التاريخية التي عملوا فيها.

ووقف على الفنون الأدبيّة، فدعا إلى كتابة فهارس شاملة بيوغرافية لما صدر من الكتب في كلّ فنّ أدبي، في الأقطار العربيّة، قطرًا قطرًا. ونبَّه إلى ضرورة قراءة مقدمات هذه الأعمال لتبيين مفهوم هذه الفنون عندهم، وما كتبه الغربيون فيها، لتحديد مدى التأثر بآدابهم التي سبقونا إليها. وعدَّد فنون الأدب شعرًا ونثرًا مثل «الملحمة»، و«القصيدة» وأحوالها، وما طرأ على صورتها ومضمونها، وأوصى بالاطلاع على المناهج الغربية في النقد الأدبي. وأفرد أدب المهجر بالدرس، واستخلص خصائصه الشعرية الفريدة.

ولحظ تأثر بعض أدباء المرحلة الأخيرة بالغرب تأثرًا بالغًا خرج بهم عن حدود الاحتفاظ بالأصالة، على حين أساغه بعضهم إساغة قرَّبتهم منها.

ثم إنه جمع بعض تفصيلات هذه الموضوعات في كتابٍ صغير، طبعه في المعهد، بعد سنوات (1963)، سمَّاه «المدخل إلى الأدب العربي المعاصر».

والذي ننتهي إليه هنا: هو قدرة الدكتور الحسيني الملحوظة على الجمع والفرز والتقسيم، في كلّ مادة أقبل على درسها. وإني لأنظر اليوم في بعض

دفاتري التي كتبتُها، وأنا أستمع إليه في محاضراته التي ألقاها علينا، فتتوزَّعني خواطر أعيا في لمها، ويدركني عندها إحساس عميق بماصرف صاحبها من وقتٍ وجُهد في جمعها وحصرها والتنسيق بينها، وبما حمَّل نفسه من ثقل التبعات عند من وقف نفسه على تخريج الأجيال الجديدة التي كان يرجو أن تحمل الرسالة، من رجال الفكر والبحث، في تلك المرحلة الصعبة التي أدركتُ، بعد انضمامي إليه في العمل في القسم، مدى مرارة ما كان يضع فيها من نفسه، بعد ضياع الوطن والبيت، وذهاب النفس معهما إلى حيث تضيع معاني الحياة والموت جميعًا.

تناول بالدرس موضوعين آخرين: «النقد الأدبي المعاصر» و«الأدب والقومية العربيّة».

ففي الموضوع الأول تتبع الرعيل الأول من هؤلاء النقاد، والعوامل التي دعتهم إلى إعادة النظر في القيم الأدبيّة المألوفة. وعرض للنظريات التي أتوا بها، وحللها وردَّها إلى أصولها، وبيَّن أثر النقد في الأدب المعاصر، وألمَّ بأهم آثاره وأشهر أعلامه.

وعدَّ هذا البحث جزءًا من دراسة الأدب الحديث، وهو الموضوع الأول الذي حمَّل نفسه تبعة درسه، فضلًا عن أن دراسة النقد الحديث تتيح التعرف إلى أهم كتبه، وتصنيفها حسب ظهورها، ليبدو التطورُ التاريخي فيها.

وعلى هذا النسق تمَّ الرجوع إلى أثر مدرسة الإصلاح الديني والاجتماعي والثّقافي واللغوي، التي قادها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وأثرها في الأدب العربي الحديث، وعرض بعدها لكتاب روحي الخالدي «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب» و«مقدمة الإلياذة» لسليمان

البستاني الذي تصدى لترجمة إلياذة هوميروس شعرًا، وكتاب «منهل الورَّاد في علم الانتقاد» لقسطاكي الحمصي. وخرج بعدها إلى كتاب «الديوان» الذي أصدره العقاد والمازني، و«الغربال» لميخائيل نعيمة، و«ثورة الأدب» لمحمد حسين هيكل.

ورأى أن تناول هذا الموضوع، على النحو الذي اختاره، يكفي في تبيُّن أثر النقد العربي الحديث في الحركة الفكرية الأدبيّة، في المجتمعات العربيّة قاطبة، فاستغنى بهذا عن كتابة خاتمة للكتاب الصغير الذي طبعه له المعهد سنة 1967 بهذا العنوان!.

أما الموضوع الثاني «الأدب والقومية العربيّة» الذي تناوله أيضًا في صورة المحاضرات التي ألقاها على طلبة المعهد في أقسامه كلها، قبل أن يجمعها في كتاب طبعه له المعهد أيضًا سنة 1966، وعدَّ إلقاءها على الطلبة «بقصد تثقيفهم ثقافة أدبيّة عامّة» يقضي بها وجوب «إطْلاعهم على ما ينبغي أن يطلع عليه كلّ مثقف في شؤون الأدب واللّغة».

وقد دعا الطلبة في مقدمة الكتاب إلى توسيع اِطِّلاعهم على ما نُشر من البحوث في موضوعه، وترديد النظر فيه وألا يكتفوا بما سمعوه من محاضراته عنه، أو بما يقرؤونه في الكتاب المطبوع.

وأعتقد أن مثل هذه الإشارة تفي باستكمال صورته التي طلع بها على طلبة المعهد، صورة المربي الواسع الاطلاع على حقيقة ما يقع في ميدان التربية والتعليم من قصور في المجتمع العربي كله، متمثلًا في الوقوف عند حد الحفظ والترديد، والعجز عن تجاوزهما إلى حدود الفحص والمساءلة وتكوين الرأي الذاتي الخاص.

وتدور هذه المحاضرات المنشورة التي تلمَّ بأحوال العالم العربي، وتقف على نواحي القوة والضعف فيه، وما تقتضي معرفتنا بها من العمل على «تأدية واجبنا نحوه».

تمت مناقشة رسالتي لنيل درجة الماجستير من المعهد، أواخر سنة 1960، واخترت الدكتور محمد مندور، للإشراف عليها، فوافقت إدارة المعهد على اختياري.

وحضر الأستاذ محمد شفيق غربال، مدير المعهد، جلسة المناقشة، ثم استدعاني إليه بعدها، وعرض عليَّ أن أبقى في المعهد، ويُجَدَّدَ إيفادي إليه، لتحضير رسالتي لنيل درجة الدكتوراه، واستُحدثت في المعهد وظيفة جديدة باسم «المعيد» على أن يكلَّف هذا المعيد بإلقاء محاضرات فيه.

كانت الغرفة التي خُصصت لي مجاورة لغرفة رئيس قسم الدراسات الأدبيّة والنقدية، لصلتي فيه بدراسات المحاضرين في المعهد. هيأتُ نفسي للعمل برئاسة الدكتور إسحق موسى الحسيني، وأحببتُ أن تتمَّ موافقته على موضوع المحاضرات التي أُلقيها، فترك لي حق الاختيار، ولكنه نصح بأن تكون محاضراتي الأولى في موضوع «النثر المهجري» الذي نلتُ فيه شهادة الماجستير.

ثم لم أره بعدها يسألني عن المحاضرات، وأحسست برغبته في أن يراني دائمًا صاحب الحق في اختيار ما أختاره لنفسي؛ صورة نادرة للمربين ما كنتُ أنتظر أن أرى مثلها في مؤسساتنا الثّقافيّة.

وكان في بعض الأيام، يصطحبني في طريقه إلى محطة المواصلات التي كان يستقل إحدى عرباتها إلى بيته في «مصر الجديدة»، فنقطع معًا الطريق

إليها من «جاردن سيتي»، ونخرج من محيط المعهد إلى رحاب الصلة الإنسانية الطلقة التي تنتفي عندها رسوم العمل فيه، وكان يحدثني في هذه الطريق، أحيانًا، عن حياته في فلسطين وبيته[1] الذي خلَّفه فيها، في القدس، بعد احتلالها، ومكتبته الضخمة التي ضُمَّت بعد رحيله إلى مكتبة الجامعة العبرية. وكان، حين يذكرها، يذكر معها ما انتهت إليه كتب أسامة بن منقذ فارس حروب الإفرنج «الحروب الصليبية» الذي سطا الإفرنج في البحر على كتبه، «أربعة آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة»، وخلَّفوا في نفسه، كما يقول في كتابه «الاعتبار»[2]: حزازةً صحِبَتْهُ إلى آخر العمر!».

وما أدري كيف انعطف بنا الحديث يومًا؛ فقال في أسى: «لم أكن أريد الرحيل أبدًا، ولكن بعض اليهود الشرقيين كانوا يهتفون إلي، ويختارون، في خطابي، أحط صياغات العربيّة الدارجة: ارحل فنحن قادمون إليك، نريد.. زوجك وابنتك، فركبني الخوف ولم يبق أمامي إلا طريق الرحيل».

أذكر أني عندها انعطفتُ به إلى مشهد رأيناه في الطريق، فقد أحسستُ أنه يتفطَّر، وإن حرص على أن يُظهر التماسك!.

كان حنينه إلى القدس يملك عليه نفسه، ويتمنى أن يعود إليها ليُمضي ما تبقى من حياته فيها، وقد عاش عمرًا مديدًا قارب فيه التسعين (ت1991م)، وسمعتُ منه أنه كان صبيًا يقف في جانب الطريق التي مرَّ منها الجنرال الإنجليزي (اللنبي) حين دخل القدس، في نهاية الحرب

(1) كان هذا بيته الأول الذي بناه في القدس الجديدة. ثم إنه، وهو في القاهرة، جمع ما يمكُنه من بناء بيت آخر، في القدس القديمة، ليعود إليه. ولكن الاحتلال سطا عليه أيضًا سنة (1967) وتمكن الحسيني في آخر الأمر، أن يسكن جانبًا منه، بعد عودته إلى القدس.

(2) انظر كتاب «الاعتبار» من تحقيقنا وتقديمنا، ص96 (المكتب الإسلامي ببيروت 2006).

العالمية الأولى (1917م)[1].

وفي هذه الطريق أيضًا نقل إليَّ صورة حية من صور دراسته في جامعة كامبريدج: أمسك به أستاذ العبرية في الجامعة يومًا، وهو يعرف مكان أسرة الدكتور الحسيني في فلسطين، وكان من أحبار اليهود، فقال له: «إن علينا، نحن وأنتم، أن نتحد في مواجهة أَكَلة لحوم الخنازير».

على أني، في المعهد، ما أذكر يومًا دعاني فيه إليه، للنظر في أمر من أمور القسم مهما علا شأنه؛ كان إذا عرض ما يدعو إلى البحث فيه، يحمل أوراقه ويقرع عليَّ الباب، ويدخل، فيجر كرسيًا إلى مكتبي، ويقعد إلى جانبي يبادلني الرأي، كنتُ أقول لنفسي عندها: ما أكرمه! ما أجلَّه! ما أنبل الأصل الذي يعود إليه!

كان يصحبُني في جولات طويلة، نزور فيها بعض أصدقائه من رجال الفكر الفلسطينيين. وزرنا يومًا المرحوم محمد علي الطاهر أعلم الناس بالخريطة العمرانية والبشرية لفلسطين، وكان يعمل في بحث صعب يتصل بأخبار اليهود في القرآن الكريم، فكان يريد أن يثبت أن القرآن، في آيات بعينها، حكى من أخبارهم ما يحكونه هم عن أنفسهم، ورأيتُ الدكتور الحسيني يتسع صدره للنقاش اتساعًا يحتكم فيه إلى العقل، وإلى واقع النصوص، وجلستُ أستمع إلى النقاش وقد خلبني فيه هدوء الحسيني وحرارة روحه ووضوح عقله، وما تزال هذه المسألة إلى اليوم تثيرني ذكراها.

ثم أخذتُ أزوره في البيت أحيانًا، فأجده على حال من أحوال النفس التي تعصرها آلام الغربة والوحشة والضياع؛ زرته يومًا فرأيته يستعيد بعض

(1) أظن أنه ذكر يومها أن ميلاده كان سنة 1905.

صور القضية، وكان وحيدًا في البيت، فرفع يده يلوِّح بها في معنى من معاني الصبر والتصميم، ثم هدأ وهو يقول: ولكنَّ الأمر مهما طال فمفتاحه في النهاية في أيدينا، والتاريخ يسير إلى جانبنا».

كان بالغ الحساسية، يقترب فيها أحيانًا من درجة التطيُّر، لما عانى وما كان يعاني من ضغط الاستقرار.

ثم إني أنهيتُ عملي في المعهد، وعدتُ إلى دمشق، ولكني كنت أزور القاهرة، فأزوره وأستطلع رأيه في بعض ما يسألني فيه من شوون الدرس والتدريس في جامعة دمشق.

وأذكر أني، وأنا أتناول بعض أدب النكبة بالدرس، طالعني موقف العرب من قضيتهم قبل أن تقع النكبة بسنوات قليلة، فما رأيته موقفًا يرقى إلى الإحساس بخطرها العظيم الماثل في حياتنا، منذ مطلع القرن العشرين، وذكرت فجأة كتاب الدكتور الحسيني (مذكرات دجاجة) وكنت قرأته سنة صدوره (1943)، قبل وقوع النكبة بسنوات قليلة جدًا، كانت نذرها مجتمعة فيها، فأذهلني أن أجد كاتبها فرغ فيها للتأمل في مسائل كثيرة[1] جعل معها القضية الكبرى مسألة بين المسائل. وخيّل إليّ، وأنا أقرأ هذه المذكرات، أن الدكتور الحسيني اختار فيها حلًا وجدتُه عميق الدلالة؛ إذ تدخلت «الدجاجة الحكيمة» في «مجلس الدجاج» فدعت إلى أن تعلو الحكمة فوق القوة، في الدفاع عن المأوى الذي احتلته أسرة أخرى من الدجاج غريبة عن أسرتها، وطلبت من أفراد أسرتها أن يكونوا من دعاة «المحبة والعدل والمساواة».

(1) انظر كتابنا: «من أدب النكبة» المنشور ضمن كتابنا «تعريف بالنثر العربي الحديث» ص368 – 9 (مطبعة ابن حيان بدمشق 1982م).

وكنت سنة (1971) في زيارة للقاهرة فلقيت الدكتور الحسيني فسألته رأيه آنذاك فيما دعت إليه «دجاجته الحكيمة» وقد احتلت الأسرة الغريبة مأوى أسرتها كله، وطردت أكثر أهله، وتجاوزت إلى ديار أخرى! فرفع الدكتور الحسيني يديه إلى أعلى ما وصلتا إليه، وقال وهو ينتفض: «إني، وأنا أدون المذكرات، لم تخطر لي القضية ببال، ولم أردْها فيما كتبته فيها»، ثم سكت قليلًا وقال بعدها: أني لا أعفي نفسي من اللوم؛ فمثل هذا الكلام يستدعي أن يُدرَس قبل أن يُكتب».

كان عمق إيمانه بقضيته مثلًا يستحق أن يُضرب للناس. وكان في سمو خُلُقه ووضوح رؤيته وانحيازه في أحكامه إلى العقل رجلًا قلَّ شبيهه في الرجال.

هيئة علمية للقدس

سهر الدكتور إسحق موسى الحسيني في أيامة الأخيرة في القاهرة على إنشاء هيئة علمية للقدس، وضع لها نظامها الأساسي وجعل من معهد البحوث والدراسات العربية (1 شارع الطلمبات بجاردن سيتي - القاهرة) مقراً لها، وسلَّمني يومذاك، في زيارتي للقاهرة (1971) نسخة من نظامها الأساسي المطبوع في كراسة صغيرة. وفيما يلي صورة لأهم بنوده، قدِّم لها بهذه الكلمات:

إن مدينة (بيت المقدس) من أقدم مدن العالم، وأعظمها قدسية، وأغناها بالآثار الحضارية والدينية والمدنية، حتى ليصح القول: بكاملها، متحف منقطع النظير.

وشاءت إرادة الله أن يخصّ المدينة المقدسة بعنايته، فجاء إليها وانطلق

منها ومما جاورها وسرى إليها، أنبياء ورسل يدعون إلى الأخوّة بين الناس، والمحبة والعدل والسلام، الأمر الذي يُلحظ في اسمها الأقدم «أورسالم» واسمها الأحدث «بيت المقدس»، وما تخللهما من أسماء وثيقة الصلة بالسّلم والقدسية.

وانساق الإنسان، بإرادة الله، فأقام فيها المعابد والكنائس والمساجد، يؤمّها العابدون من شعوب الأرض، أقصاها وأدناها، حتى أضحت بحق «العاصمة الروحية» لمعظم سكان العالم.

وتفنن المؤمنون في التعبير عن حبهم لهذه المدينة، وتعلقهم بها، وتفانيهم في خدمتها، فزخرفوا وزينوا وجمَّلوا وأبدعوا ما شاء الله لهم أن يفعلوا، دون حساب لجهد أو مال، وحسبنا أن نشير هنا إلى ما ذكره المؤرِّخون من أن الخليفة عبدالملك بن مروان أنفق على بناء قبة الصخرة وحدها، خراج مصر لسبع سنوات، ثمّ تبارى الخلفاء والأمراء والحكام ورجال التقوى والصلاح في إنشاء المعابد والمساجد والمدارس والزوايا والتكايا والبيمارستانات والأديرة، حتى اجتمع في المدينة ما لم يجتمع في غيرها من آثار فنّيّة غاية في الروعة والإتقان.

وهذه القدسية، وهذا البذل، جعلا المدينة المقدسة، طوال التاريخ الإسلامي، في وضع خاص لا يبيح لأحد أن يستقل بملكيتها، والاستئثار بمقدساتها، فضلاً عن سلب كنوزها وتغيير معالمها التاريخية. وقد أجمع الرأي العام الدولي، متمثِّلا في قرارات هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومنشورات الهيئات الدينية والثّقافيّة العليا: على وجوب احترام مشيئة الله تعالى المتجلّية في كلّ شبر من أرض المدينة المقدسة وكلّ حجر من حجارتها، وكلّ

ذرة من ترابها.

وقد هزّ الاعتداء على المدينة الجديدة، سنة 1948، وعلى المدينة القديمة 1967، وما تلا ذلك من تصريحات عدوانية عنصرية، الضمير الإنساني، خاصة علماء التاريخ والآثار، وخشُوا أن يكون ذلك بداية لحركة من التدمير والتخريب، تعود بالإنسان القهقرى، إلى زمن بدائي كانت فيه القبائل تتناحر في سبيل أهواء وأساطير ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الإنسان تعلّم، على مرّ الزمن والمحن، أن من يدّعي أنه أقرب إلى الله من غيره هو أبعد عنه من غيره، وأن من يدّعي أنه مثال الكمال الإنساني، هو أبعد عن الكمال من غيره، ولقد انقضى زمن الشعوبية بجميع أشكالها، من عنصرية وفاشية، إلى غير رجعة.

ومن أجل دعم هذه المثل العليا التي تمسّكت بها أمتنا، بحكم عقيدتها، ومن أجل أن يسود السلام في «مدينة السلام» ومن أجل ردع من سوَّلت له نفسه الاعتداء على الآثار الحضارية التي خلَّفتها الأديان السماوية، تداعى نفر من علماء التاريخ والآثار إلى تأليف هيئة علمية تضطلع بهذه المسؤولية، تمتد عضويتها حتى تشمل كلّ عالم مؤمن بتحقيق هذه الأهداف، ارتبط بالمدينة المقدسة بسبب من الأسباب.

د. عبدالكريم الأشتر

(مقتطف من مقال نشر بمجلّة المعرفة 2009)

الحياة الأدبيّة في فلسطين

إن أظهر مساوئ التاريخ القديم اعتماده في تاريخ الحياة العامة على الحياة السياسية بأضيق معانيها، ولذلك لا يجد المطالع في كتب التاريخ سوى أشباح لأمم سالفة؛ فمعالم الأمم، أو أعراقها النابضة بالحياة، تكاد تكون مخفية عن الأنظار.

وقد يكون من التعسف محاكمة المؤرِّخين المتقدمين بالمقاييس الحديثة؛ فقد فهموا التاريخ قديمًا على أنه خلفاء وملوك وأمراء..

ويفهمه المحدثون اليوم على أنه ظاهرات سياسية واقتصادية واجتماعية وأدبيّة تشمل الحكام والمحكومين على السواء.. والعنصر السياسي إنما هو خيط من جملة خيوط يصنع منها هذا النسيج الذي يسمَّى تاريخًا. وعلى

ذلك فإنه من أشق الأمور على مؤرِّخ الحياة الأدبيّة اليوم أن يعود إلى تلك العصور القديمة ليبحث عن خبطات تصلح لأن يصنع منها نسيجًا عامًا جديرًا بالعرض.

وقد وهم بعض الناس أن هذا القطر الصغير بمساحته وعدد سكانه، الكبير بمقامه الديني والسياسي، لم ينتج أدبًا في العصور الخوالي، وهو وهم تنقضه طبيعة الحياة بقدر ما ينقضه الواقع.

فمنذ الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا والأدباء يتعاقبون بلا انقطاع، ولكن هناك ثلاث حقائق يجب أن تذكر:

الأولى: إن فلسطين لم تكُ وحدة مستقلة في عصر من العصور؛ لقد كانت جزءًا من تلك الرقعة الواسعة التي تعرف بـ«ديار العرب» ولم يستقل بحكمها أمير كما حدث في بعض الأقطار؛ فهي إما متبوعة وإما تابعة.

الثانية: إنها لم تك مركزًا لخليفة أو سلطان مدة طويلة من الزمن حتى يجذبا إليها الشعراء والكتَّاب، أو يحفظا المواهب الأدبيّة في بيئتها، ويحولا دون انتقالها إلى بيئات أخرى، وفي فترتين قصيرتين كانت فلسطين أو على الأصح- الرملة وبيت المقدس- عاصمتين لديار العرب كلها. ولكنّ تينك الفترتين كانتا أقصر من أن تتيحا للحياة الأدبيّة أن تزدهر في فلسطين نفسها.

والثالثة: إن البلاد لم تشهر بالرخاء الاقتصادي، بله الترف، الذي نعمت به العراق والشام ومصر والأندلس.

فليس عجيبًا بعد هذا أن يتوجه أبناؤها إلى مراكز السلطان والرخاء يتلمسون الدواعي لفتق المواهب؛ فكشاجم الرملي (المتوفى في حدود سنة

350هـ) يتنقل بين الرملة وحلب وبغداد والقاهرة، وأبو إسحق الغزي (المتوفى في سنة ٥٢٤ هـ) يجوب بلاد المشرق متنقلًا بين دمشق وبغداد وخراسان وكرمان ويموت في بلخ، والقاضي الفاضل البيساني العسقلاني (المتوفى سنة 596هـ) يستقر أكثر عمره في القاهرة، وهكذا شأن من وليهم من الأعلام، كابن حجر العسقلاني، وصلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، وغرس الدين الخليلي، ومرعي الكرمي، وعبدالغني النابلسي، وروحي الخالدي المقدسي.

ولقد أسهم هؤلاء إسهامًا كبيرًا في التراث الأدبي العام؛ فكشاجم الرملي من شعراء العرب المتميزين بوصف الطبيعة، وأبو إسحق الغزي ذو نفس شعري رفيع يسمو به في كثير من الأحيان حتى يلحق بالمتنبي، والقاضي الفاضل البيساني ثائر من الطبقة الأولى وذو مذهب خاص في الأدب العربي، وحسبه فخرًا أنه وطّد سلطان صلاح الدين بقلمه كما وطّده المجاهدون بسيوفهم، وهو شاعر أيضًا، وإن كان شعره أقل شهرة من نثره، وصلاح الدين خليل الصفدي أسهم في تكوين جانب من التراث الأدبي المعروف بـ« التراجم»، علاوة على دراساته اللغوية والأدبيّة.

أما الشعراء والأدباء الذين لم يغادروا بيئتهم فكثرة لا تحصى، ولكنا لا نجد بينهم من يلحق بأولئك الأعلام الذين آثروا الرحلة على البقاء، واثقين بأنفسهم، معتزين بأدبهم، وجلّهم من طبقة الفقهاء الذين كانوا يتملحون بالأدب، ويؤدون عملًا محدودًا في المدارس أو المساجد أو القضاء، لغلبة الدين على النفوس ومقام البلاد «المقدَّسة».

والنهضة الحديثة بدأت متأخرة في فلسطين، ويتظرف بعضهم فيؤرّخها

من سنة 1939! ولكن الواقع أن التربة الفلسطينية تحتوي في بطنانها على بذور كريمة سيكون لها شأن أي شأن. ويوم تنقشع تلك السحب الكثيفة من سماء هذا القطر العربي العزيز سيصل إلى أجواء البلاد العربيّة أريج ذكي فيه نفحات الفكر النير والشعور الرقيق، والذوق الأنيق.

لقد عاش الشاعر المرحوم إبراهيم طوقان في قفص، ولكن تغريده وصل الآذان في كلّ قُطر عربي، ويعيش اليوم كما عاش إبراهيم عشرات من الشعراء والكتاب تلزمهم ظروف الحياة - وما أقساها وأكثرها! - أن يؤثروا العافية، ولكنهم لم يكسروا مغازلهم ولم يقنطوا من رحمة الله.. وإن دلّ تسترهم على شيء فإنما يدل على أن تحت الرماد وميض نار.

والأدب المنثور الذي ظهر في ربع القرن الأخير هو أدب «مقالات» أكثر منه أدب «مؤلفات»، ونكاد لا نجد بين جميع الكتب كتابًا أدبيًا فصّل فكرة أو مذهبًا، أو على الأقل أرخ جانبًا من الحياة الأدبيّة في عصر من العصور، أو حلل أدب علم من أعلام الأدب في البلاد، وكان ذا وحدة متماسكة الأجزاء.

وأدب المقالة هذا خليط من نزعات متباينة؛ فنزعة إلى القديم، وأخرى إلى الجديد، ونزعة إلى النقد اللغوي، وأخرى إلى النقد الاجتماعي الرفيق، وبين هذا وذاك نفحات أدبيّة أصيلة تعبر عن مرارة في أعماق النفس أو حزن لاذع لفقد زوج.

وهذا الأدب بكامله أبعد من أن يمثل «مدارس» أو نزعات أدبيّة اجتماعية عامة؛ فهو أدب فردي يتأثر بحادثة «فردية» ويعبر عن عاطفة «فردية» ويمثل أسلوبًا «فرديًا»، وربما كان فقدان الحلقات الأدبيّة، أو التوجيه الأدبي، السبب الرئيسي لذلك، ولعل المحنة التي تجتازها البلاد علة العلل جميعًا.

أما الشعر الذي سما به إبراهيم طوقان - بفنه وجرأته واستقلاله- إلى مرتبة غير مسبوقة في تاريخ البلاد الأدبي الحديث، فموزع اليوم بين طائفة من شعراء الشباب، وتغلب عليه مسحة الجد والحزن، وهي من من آثار الاتجاه الصادق نحو الشعر الحق، وكل مسحة خلافها من آثار الصنعة فالحياة الاجتماعية في البلاد لم تتطور حتى تصبح ملهمة للشعراء فنونًا جديدة من الشعر الاجتماعي الحي، والشعر العربي الحديث عامة أبعد من أن يبلغ ما بلغه الشعر القديم من استهواء القلوب، ومن الصلة الوثيقة بالمجتمع، ومن صدق الشعور واتقاد الذهن، وأخيرًا من الحرّية الواسعة وفراغ البال، وربما كانت بيئتنا أقل البيئات حظوة بهذه العوامل الأخيرة، ولذلك لا نعجب إن استأثر بإمارة الشعر قُطر عربي آخر.

وهنالك ظاهرة عامة تبشر بالخير في مستقبل الأدب، وهي أن النشء الحديث يتجه اليوم نحو ثقافة عميقة توسع أفقه وتنور فكره وترهف حسه؛ فهو ينهل من الأدب الغربي نهل الصديان، وإن تيسر لهذا النشء أن يوجه للأدب العربي القديم ما يستحق من عناية، وأن يعلم أنه بمنزلة الأساس في بنائه الأدبي، وإن تطورت الحياة الاجتماعية في وقت نضوج مواهبه الأدبيّة، حق لنا أن نشهد أدبًا يجعل كلّ أدب ظهر في ربع القرن الأخير في مرتبة البدايات الأولية. وإنا لنتمنى على الله أن يبز اللاحق السابق، وأن ينسخ الحديث القديم، كي نطمئن إلى أن حياتنا وأدبنا سائران قدمًا في طريق الرقي والازدهار.

إسحق موسى الحسيني

مجلة «الأديب» 1945

مذكرات دجاجة

(1)

هذا هو اليوم الثالث من انتقالي إلى بيتي الجديد، ويظهر أني سأكون سعيدة هنا بين أترابي الجديدات. إني حزينة لفراق بيتي القديم، ولكنَّ حزني لن يطول. كنت في بيتي القديم أجد مَيْدان الحياة واسعًا، والهواء طلقًا، ولكنني كنت أشكو عسر الحياة وقلة الطعام، وعدم مبالاة مضيفتنا بعلفنا عن سعة؛ على أني كنت مع ذلك أجد من ربة البيت حبًا كثيرًا. كنت أشعر أنها تخالطنا بروحها، وتُعنى بأمورنا عناية تحملها على أن تعدَّنا كلّ صباح عند انطلاقنا من مأوانا، وكل مساء عند عودتنا إليه. ما كنت أفهم سرّ هذا العد، ولكني أحمله على محافظتها على أرواحنا، بيد أنه إن كان الأمر كذلك فلم فرطت ربة البيت بي؟ لقد كنت أحفظ لها في قلبي جميلًا، وكنت أنظر إليها حينما أخرج من المأوى نظر إعجاب وحب صادق، وكنت أظن أنها تبادلني شعوري، وأني سأمكث عندها

مدى الحياة. ولكني فُوجئت يومًا بقدومها إلينا على غير عادة مبكرة في الصباح، وما أدري سرّ انقباض زوجنا في ذلك اليوم؛ يظهر أنه كان يشعر شعورًا غريبًا، لقد كان يكثر من الصّياح، وكان في صوته أنين شعرت به، ونبهت إليه إحدى رفيقاتي؛ فقالت لي: إنك متشائمة اليوم، قلت: قد يكون ذلك، وأرجو أن يكون يومنا كأمسنا، وبعد لحظة دخلت ربة البيت علينا، وأقفلت وراءها الباب. فزعنا، وكنت أشدَّ رفيقاتي فزعًا، وأسرعهن إلى القفز إلى الباب. وأخذت أحدق إلى الربة أتأمل وجهها، وأحاول أن أتبين فيه بكورها، ولكنها بدلًا من أن تنظر كعادتها لمع في عينيها بريق ما رأيت نظيره من قبل، وبعد قليل أقبلت نحوي في سرعة واضطراب، فثبت في مكاني وأنا مشفقة عليها متكدرة حزينة، أني أرى في اضطرابها ما أعجز عن تخفيفه. ثم أسرعت الخُطى وانقضت عليّ، فنظرت إلى رفيقاتي وإلى زوجي الطيب فوجدتهم جميعًا جزعين. ويظهر أن دوارًا أصاب رأسي منعني من التفكير في أمري، ولما عاد إليّ شعوري وددت لو تبيح ربة البيت إطلاقي لأودِّع رفيقاتي وزوجي الطيب. ولكنها بدلًا من أن تُعينني على تحقيق رغبتي أوثقت قدميَّ ووضعتني في جفنة وجاءت بي إلى هذا البيت الجديد.

من يدري لعلني أسرفت في سوء الظن، ولعلّ ربة البيت آنست مني ضيقًا بالحياة، فأرادت أن تروِّح عني بمجيئي إلى هذا البيت، ولكن ليتها خيرتني بين البقاء والذهاب، وليتها رفقت بي ولم توثق رباطي. ولكني إذ أعود بذاكرتي إلى حياتي في البيت القديم لا أرى ما يدل على أن ربة المنزل حسبت لرأيي حسابًا، هذا على ما يظهر شأن هذه العملاقة التي رزقها الله بسطة في الجسم تخيفنا وترعبنا. كم كنت أتمنى لو كانت ربة

البيت تفهم مني ما أقول، إني إذن لشكرت لها رفقها بي وحدبها عليَّ يوم كنت نازلة في بيتها معززة، ولكنت أوصيتها خيرًا بأسرتي، وخاصة زوجنا الصالح الذي لن أنساه.

تُرى سأكون سعيدة في هذا البيت؟ قلت إنني أشعر بأنني سأكون كذلك، وهذه المظاهر التي حولي هي التي أوحت إليّ بهذا الشعور؛ فمنذ ثلاثة أيام وأنا أذوق الحب السمين يوضع أمامي في كرم يبلغ حد الإسراف، والماء يوضع في إناء نظيف. أظن أني ضحيت أشياء لقاء أشياء؛ ضحيت الحياة الرحبة الواسعة، والمناظر الريفية، وعوضت عنها بوفرة الماء والطعام، وبقلة العناء في الوصول إليهما، إنها نعمة من الله. كنت أريد أن أقول أكثر عن الربة القديمة، ولكني أخشى الزلل وسوء الظن، فلأتركنّ للأيام المقبلة أن ترشدني إلى الأصالة وتجنّبني الخطأ، وليقبلْ زوجي الصالح وأترابي أصدق عواطفي ومحبتي.

(2)

هذا هو اليوم العاشر من مجيئي إلى بيتيَ الجديد؛ لقد أردت أن أؤرخ لحياتي هنا، لأني شعرت في أعماق نفسي ميلًا إلى كشف السر عن تلك المعاملة التي عاملتني بها ربة البيت القديم؛ هل من الإنصاف أن أُنزع من بين عشيرتي قسرًا دون سبب؟ قلت لعل ربتي أرادت خيرًا، وأنا من أجل ذلك أريد أن أعرف سر ما فعلت. منذ ما جئت وأنا أؤرخ لمجيئي بأن أضع حصاة وراء البيت في كلّ صباح، واليوم عندما وضعت الحصاة العاشرة انتبهت إلى أني دخلت في اليوم العاشر، فوقفت قليلًا أفكر في بيتي القديم،

وفي سر تلك الفَعلة. الحق أني فقدت أعزاء، وأني لن أجد في هذا البيت من يعزيني عن فقدانهم؛ نعم إن زوجنا هنا يُظهر حبًا لي، ويؤثرني من حين لآخر في غفلة عن زوجاته بالحب السمين، وقد لمحت في عينيه عطفًا عليّ، إمّا لأنه علم بغربتي فأراد أن يواسيني، وإما لأنني ضيفة عليه، وللضيوف مقام.

بدأت آلف البيت الجديد وأشعر بكثير من الهناءة والترف، ولكني فقدت بعض نشاطي؛ يظهر أن كلّ ربح لابد له من خسارة، ولا يمكن للمخلوق أن يأخذ دون أن يُعطي، ولا أن يُعطي دون أن يأخذ. كان الحَبُّ في بيتنا القديم دون خرط القتاد، وكنا مع ذلك نستشعر النشاط والسرور عندما نقع على حبة سمينة. أما هنا فالحب السمين تذروه الأيدي بسخاء، ولكنا نأكل دون اشتهاء ولا سرور؛ إني آسفة لقولي هذا، فلعله نكران للجميل، ولكنني مهما قلت فإني أطرح مسؤوليته على ربتي القديمة؛ ليتها استطلعت رأيي. في الحق؛ إني كنت أوثر حياة الريف فلعل ربتي القديمة أرادت بي خيرًا حين نقلتني إلى هذا البيت الذي أكاد أسميه مصحًا، ومع ذلك فَلأَتَرَيَّثَنَّ وَلأرَيَنَّ ما سيكون.

(3)

حقًا إن لكل جديد لذة؛ فإنني أستشعر اليوم بكامل حواسي لذة لا حدّ لها في بيتي الجديد، وإني لآسفة لحرماني هذه اللذةَ في تلك الأيام الطوال التي قضيتها في بيتي القديم. إنّا نفطر ونتغدى ونتعشى في ساعات منتظمة، ونتنزه بعد كلّ أكلة في أرض نظيفة، وماؤنا قَراح يقدم إلينا في إناء جميل.

وغرفة نومنا تنظف مرتين في الأسبوع؛ إنها لحياة منعمة هنيئة.

جلست أمس في الظل أنظر في حياتي هذه، وأقابلها بحياتي القديمة، فأحمد الله على أن ساقني إلى مسكني الجديد سوقًا لا خيرة لي فيه. يظهر أن المخلوق مسيّر في هذا الوجود، وأنه يدفع إلى الخير أو الشر دفعًا ليس له فيه رأي ولا حيلة؛ ما دام الأمر كذلك فلم يُعنَى المخلوق بكشف الغيب وتعجل المصير؛ ليعمل في يومه ما يؤمِّن له الراحة والسرور، وليترك الغد لبارئ الخلق، والطمأنينةُ الوحيدةُ التي قد تقوم مقام التطلع إلى المستقبل هي عمل الخير المحض، فالخيِّر الصالح هو الذي يُنهي حياة يومه ونَفْسُهُ راضية أتم الرضى عن عمله في ذلك اليوم.

وفيما أنا أفكر وأحاور نفسي إذ جاء زوجنا إليّ وأخذ يسر في أذني حبَّه لي وإعجابه بي دون سائر زوجاته، ولم يسعني إلّا أن أبادله حبًا بحب، وعطفًا بعطف، وإعجابًا بإعجاب، ووجود هذا الزوج الصالح العطوف المحب هو من سَوق القدر، ولكني، بعد أن تبادلنا التحيات، فكرت في سائر زوجاته، ترى أينعَمن بحبه كما أنعَم؟ أيسمعن منه كما أسمع؟ أم هن محرومات السرور والبهجة؟ فإن كان الأمر الأول فلابد أن يكون زوجي بارعًا في إدارة بيته ومعاملة زوجاته؛ قلت بارعًا لأني لا أحب أن أقول مداهنًا أو منافقًا، وإن كان الأمر الثاني فما أشقاني بشقائهن وما أحزنني بحزنهن!.

الحق أني كنت أوثر أن أنجو من هذا المأزق بأن أعيش مع زوجي وحيدة، فلا أتهمه ولا أنكد عيشي بوجود سائر زوجاته، ولكن أليس هذا أنانية مني؟ لِمَ لا أقنع قناعة سائر الزوجات؟ ولِمَ أفسد حياتي بهذه المطامع

البعيدة؟ لنأخذ الحياة كما هي إن شئنا أن ننعم بالطمأنينة؛ فالحياة معقدة مبهمة، ولا سبيل إلى خلقها خالية من هذا التعقيد والإبهام.

يظهر أن المخلوق يُرزق الرضى والقناعة عند مجيئه إلى الحياة، ثم مايفتأ يوسّع من رغباته وآماله حتى يفسد عليه فطرته الأولى. لا أريد أن أكون من ذلك الطراز، وسأحرص منذ اليوم على أن ألتزم فطرتي الأولى. وبعد أن دارت في نفسي هذه الأفكار بسرعة، ذهبت إلى زوجي وقلت له: أنت حبة القلب ومنى النفس، ومثلك خليق بأن يرزق السعادة وأن يحظى بالمحبة والوفاء. التفت إليّ وقال ضاحكًا: وأنت كذلك؛ أظن أنه قالها والبشر يملأ قلبه. إني أعتقد أن زوجي ساذج، وأن فطرته الأولى لم يشبها طمع؛ لعله حرم هذه التأملات فسلِم مما يعكر صفوه، أريد أن أقول إنه خير مني، وإن لم يكن كذلك فهو على الأقل أنعم بالاً وأهدأ نفسًا.

(4)

لقد شغفني زوجي حبًا، وتملك كلّ جارحة من جوارحي، ولو كان لي أن أقتطع من لحمي شطرًا وأطعمه إياه لفعلت، ولو كان لي أن أتخذ من عيني ماء وأسقيه إياه ما توانيت، ولو كا لي أن أكسوه أجمل ثيابي ما ترددت.

ولم لا أفعل كلّ ذلك؟ إنه لمثال المروءة والكرم والحنوّ والحب، إن وقع على حبة سمينة دعانا إليها، وآثرنا بها دونه، وإن سقط على شربة ماء توقف واستقدمنا لنبدأ بالشرب قبله، وإن سمع صوتا مفزعًا انتفخت أوداجه،

وتصلبت أعصابه، وثار الدم في وجهه، واستعد للقاء المكروه بنفسه، ولو جاء المكروه من أكبر مخلوق وأقسى معتد لكان موقفه موقف المدافع الذابِّ عن حماه؛ فليت شعري أي مخلوق يقف منا هذا الموقف النبيل؟.

وجماله فتنة لا مثيل لها، وصوته سحر لا يشبهه شيء، أودّ أحيانًا أن ينقلب جسمي كله عينا واسعة الحدقة لتستمتع بجماله ولتفرق من جلاله ما شاء لها الله أن تفعل، وكم أود أن ينقلب جسمي كله أذانًا واسعة مرهفة لتتلقف صوته الجميل، ولتستمع إلى أناشيده الرائعة وغنائه العذب، وكم آسف لأني لا أستطيع أن أكون كما أريد؛ فَلْيُغْنِ المُنى عن بلوغ الغرض. ولْتَنُبِ الأماني عن تحقيق الرجاء.

أما ذلك العرف القرمزي اللين، الذي يتدلى من مفرقه، فقطعة فنيّة من صنع خالق مفن بارع. وأما ذلك العنق الطويل الوسيم الذي يشبه غصن المنثور وقت ازدهاره، وأما ذلك الفم الجميل الدقيق الذي أودعه الله أعذب لسان، وأما ذانك الجناحان الملونان بأجمل الألوان، وأما تانك الساقان الدقيقتان، وتلك الأصابع الزمردية، وتلك الأظافر العاجية، وتلك المشيه المتهادية فصنع خالق جميل، أَحَبَّ الجمال فطبع خلقه بطابعه، وأنشأهم على صورته، فجاءوا أجمل مخلوقات من صنع أجمل خالق.

ما أبهج صباحنا حين يخرج زوجنا من مخدعه ويمشي مشية المدل بجماله! ويصعّد في أعلى مكان، ويفتنّ في الإنشاد والشدو في صوت هو السحر الحلال؟ إنا لنخرج في الصباح ونقف ذاهلات من فرط مانشعر به من روعة ونشوة، وكم نتمنى أن يقف الزمان في تلك اللحظة ليستمر ذلك الصوت في نغماته وليّاته.

وما يكاد زوجنا يرانا حتى يهرع إلينا محييًا مؤانسًا ملاطفًا؛ فكأننا أحب إليه من غنائه، وهو لو يدري ما في قلوبنا لعلم أن غناءه أحب إلينا من أنفسنا، وبعد أن يحيينا يقودنا لطلب الطعام الشهي، وتخير المجلس الأنيق.

لقد أردت اليوم أن أداعبه فانفصلْتُ عنه وانتحيت مكانًا قصيًا لأرى ما يفعل، وبعد لحظة استفقدني فنظر حوله يمنة ويسرة فما وجدني. فانتفض ودار دورة حول زوجاته ثم انطلق يبحث عني فما وجدني، لأني كنت مختبئة وراء صخر، فراح يقطع الساحة طولًا وعرضًا، ويدمدم في صوته فيه قسوة الموتور وحزن المكلوم، ثم أخذ يعلو الحجارة المبعثرة في الساحة وأنا أتستّر عنه، ولما لم يجدني قفز على سطح المسكن وأخذ يحدّق ببصره في جميع الجهات وينادي بصوت عذب وشدو رقيق، مستفسرًا عن مكاني، وما أصابني، وعندئذ انفرطت دمعة من عيني ولم أتمالك أن تحركت، فلمح حركتي بعين كأنها جمرة متّقدة، ثم انطلق نحوي كالسهم، فنظرت في عينيه وقد جمع الله فيهما الحب كله والحنان جميعه، فما تمالكت أن دنوت منه وسرت بجانبه، فعدنا إلى الساحة وعاد إليه بشره ومرحه.

ما أسعدنا وما أطيب أيامنا في هذه الحياة! إن نعمة الحب هي نعمة الحب؛ فما أجدرنا أن نقدرها قدرها، ونفيها حقها. لقد خاب من ظنّ أنّ النعمة في المتاع أو المسكن أو الملبس أو الطعام أو الشراب؛ إنّ النعمة هي الحب وحده، فإن وجد تركزت جميع نعم الدنيا فيه، وإن فقد عادت نعم الدنيا جميعها إلى العدم.

(5)

كان الطقس البارحة باردًا، والسماء ملبدة بالغيوم، فشعرنا جميعًا بانقباض لازمنا طول النهار، وفي صباح هذا اليوم أشرقت الشمس فأرسلت مع نورها الجميل حرارة توغلت في أجسامنا فشاع فيها الانشراح والسرور.

عجيب أمر هذه الدنيا؛ ففي يوم يمتلكنا الانقباض والضجر، وفي آخر يشيع في قلوبنا الطرب والفرح؛ ترى ما سرّ هذين الشعورين المتناقضين؟ فهل النور والدفء وسيلة من وسائل البهجة والسرور؟ وهل البرد والظلام وسيلة من وسائل الانقباض والضيق؟ إن كان الأمر كذلك فلابد أن يكون الخالق قدر للخلق أن ينقبضوا يومًا، ليبتهجوا يومًا آخر، ولعله أراد أن يلوِّن الحياة بلونين متناقضين ليستطعموا السرور بعد الابتئاس والفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، ولو كانت أيام الخلق جميعها على وتيرة واحدة لكانت حياتهم ذات لون واحد وطعم واحد، ولما وقعت لهم المتناقضات التي هي فتنة الحياة، ومصدر السعي والنشاط. ما على المخلوق إذن أن يتبرم بالحياة وهو عالم بأن لعسره حدودًا تنتهي عند يسره، وأن ليسره حدودًا تنتهي عند عسره.

لله ما أشقاني! فقد عدت إلى ما حاولت أن أدفعه عن نفسي من نظر لا طائل تحته؛ ما الذي يعنيني من هذه المتناقضات وهذه النظرات؟ ألست مخلوقًا مسيرًا لا حول له ولا طَول؟ ولكن عقلي لجوج في التفكير والتأملات؛ فلو قدّر لي أن ألجمه بلجام القدر لآب إلى رشده واستقرّ حيث قدر له أن يستقر.

قلت كانت الشمس اليوم قوية، وخرجنا من مأوانا نلتمس حرارتها ودفأها، وقد جلسنا في حلقة يتوسطها زوجنا الصالح، بعد أن مهد كلّ منا لنفسه مجلسًا يشعر فيه الدفء والراحة. لا أدري لم جاء مجلسي مقابلًا لمجلس زوجنا الصالح؛ أجاء ذلك عن قصد وتدبر أم جاء عن صدفة وانسياق طبيعي؟ وعلى كلّ حال فقد هيأ لي مركزي هذا فرصة النظر إلى وجه زوجي، فما رفعت عينيَّ عنه، وما انقطع تفكيري فيه. واليوم، لأول مرة، شعرت بأني محبة مولَهة إلى حد الاستخذاء والاستسلام، وأني أرى السعادة في وجوده، والبهجة في لقائه والأنس في جانبه، ولا أدري أيوجد بعد هذا السرور سرور آخر؟ ماذا وراء هذا الهيام؟ وماذا وراء هذا الوجد؟ كم أودّ أن أوضع موضع التجربة أولًا لأختبر نفسي نحو هذا الذي أشعر به، وثانيًا لأختبر حبّي بالقياس إلى حب سائر زوجاته. أتمنّى مثلًا أن يأتي يوم قاس فيطلب مني زوجي أن أعطيه دثاري، وأن أنزع ما عليّ فيكون له وحده، أو أن يمرض فيلتمس طبه من دمي، فإن قدمت له ما طلب كنت صادقة في حبي له غير واهمة ولا مبالغة، وإن امتنعت تبين أني كنت في نشوة الحب لا في الحب نفسه، ومن يدرينا لعل يومًا يأتي وتأتي معه المحنة، فأتثبَّت من شعوري؛ فلأترقبنَّ حوادث الدهر في غير ضجر ولا احتيال.

(6)

لقد كاد يومنا هذا أن ينتهي في شر، وكاد زوجي الحبيب أن يقع في ورطة؛ فقبيل بزوغ الشمس وحين ساعة الانطلاق من مأوانا شعرت بيد زوجي

تهزّ يدي برفق، فاستيقظت فورًا وفتحت عيني، فإذا ابتسامة ساحرة على فمه، فحدّقت إليه مستطلعة ولكنه لم ينطق، فعدت إلى إغفاءة الصبح. وبعد ثوان أعاد زوجي حركته الأولى، ففتحت عينيَّ ورأيته متأهبًا للخروج فنظرت إلى فمه أتوقع كلمة منه فلم يزد أن حرَّك رأسه أن اتبعيني. عجبت لحاله، وكدت أثبت في مكاني لولا أني فطنت إلى أنه يسر أمرًا، فتبعته في خفة إلى خارج المأوى، وهناك توقف لحظة وألقى في أذني هذه الكلمة: اتبعيني أيتها الحبيبة، ولو بلغت إرادتي أقصى حدها من القوة والنفاذ ما استطعت أن أرد له أمرًا.

سار وسرت معه، فأخذ يتخطى الحجارة المبعثرة في الساحة باحثًا عن بقعة مرتفعة يجلس عليها فلم يجد مكانًا خيرًا من جذع شجرة نضدت حولها حجارة كبيرة، فجلس وجلست إلى جانبه متجهين نحو مشرق الشمس.

قال لي في صوت عذب: لعلك تعجبين لخروجي بك على غير عادتنا في هذا الصباح! قلت: نعم، وحياتك! قال: أريد أن أخلو لحظات أبثك فيها لواعج حبي فقلت له: لقد وقع ذلك منك قبل الآن، وإن لم تنقله إليّ بصورة أصوات، وإني ما شككت قط في حبك لي وعطفك علي.

قال: ما يزيدني كلامك هذا إلّا حبًا وإعجابًا، ولكني أود أن أفصح لك عما لا سبيل إلى الإفصاح عنه في غير انفراد؛ أنت ترين سائر زوجاتي، وترين حبهن لي وحبي لهن، وما أملك حق التفريق بينهن، وما كان لي أن أوثرك عليهن، ولكن لا حيلة لي فيما أشعر به، فأنت تحتلين المقام الأول في قلبي، ومذ جئت وأنت تفتنينني بحسن عشرتك، ورقة حاشيتك،

ورزانة عقلك، وعذوبة حديثك، وتكلفك إرضائي بجميع الوسائل،وإني لأعلم أنك لو تقدرين على إعطائي جزءًا من لحمك لفعلت. قلت: يا حبيبي، أنت أهل لهذا، فقاطعني قائلًا: ولا أود أن أوهمك أني لا أحب سائر زوجاتي، فإنهن محببات إليَّ، عزيزات عليّ، ولكن حبك نوع آخر. الحق أني لا أعرف كيف أعبر عما أشعر به نحوك؛ ربما يحسن بي أن أقول إنك أقدر سائر زوجاتي على إرضائي والتحكم بعواطفي. قلت له: يا حبيبي الحب واحد. وجميع زوجاتك، وأنا معهن، يحببنك حبًا متساويًا، وما أحسبك إلّا محبًا لنا جميعًا على السواء، وما تشعر به الآن قد يكون مجاملة أو ظرفًا دُفعت إليه لسبب من الأسباب؛ فالحب إن كان من الأعماق لا يصح أن يوضع في مراتب، فهو من مصدر واحد وإلى غاية واحدة.

وأنت لنا جميعًا بقلبك وعواطفك، وما رأيناك توثر إحدانا على الأخريات. وحبك لنا مصدره قلبك الذي لا يجوز عليه التقسيم. فابتسم وقال: ومن أين لزوجاتي مثل هذا المنطق العذب؟ قلت، وطرفي منكسر: إنك يا حبيبي ينبوع الحكمة، فقال: ومن أين لهن مثل ذوقك وحصافتك؟ وفيما أهمّ بالجواب إذا حركة تنبعث من ناحية المأوى، وإذا الصديقات مجتمعات قرب الباب ينظرن إلينا في دهشة، فتركت زوجي وأسرعت إليهن أحييهن وأسألهن عن حالهنَّ، فتضاحكن، وقالت إحداهن: أراقك بزوغ الفجر؟ وقالت ثانية: أتجدين في هواء الصباح المبكّر رقة وعذوبة؟ فقلت مستحيية: يا صديقاتي، اللذة لا تكون إلّا معكن؛ فالصباح والهواء والطعام والماء جميعها من مادة واحدة لا تختلف، ولكنها تصبح ذوات طعم خاص إن اقترنت بصحبتكن وحبِّكن، فأنتن مصدر اللذة والمتعة.

فقالت الأولى وزوجنا؟ فوقعت عليّ هذه الكلمة كالصاعقة، ولم يردَّ إليّ رشدي إلّا قدوم زوجنا، فخفضت من صوتي وخفضن من أصواتهن، وتظاهرت وتظاهرن بالبشر والسرور، ومن يستطيع أن يرفع طَرْفَهُ في ذلك الوجه المشرق؟ إن أقصى ما تبلغه عيوننا تانك الساقان الرقيقتان الأنيقتان.

جاء زوجنا وسار أمامنا يلتمس الطعام والشراب والمجلس الأنيق، فتبعناه، وهل يقابل مثل ذلك العمل إلّا بالاستسلام؟ بم تقابل من يؤثرك على نفسه بالطعام والشراب، ومن يفديك بروحه حين يعزّ الفداء؟.

لقد كانت ورطة في الصباح، ولا أدري كيف تنتهي.

(7)

تمرّ الأيام وتنقضي الأعمار، والمخلوق غافل كأنه ثمل، لا يعي ما يسمع ولا يرى ما يبصر، وفي حالات كأنها لحظات يستيقظ من غفلته ويصبح مرهف الحس، حديد البصر، قوي السمع، تتجمع فيه جميع القوى، ويحسّ ما حوله حسًا عنيفًا؛ فكأنه قد ادّخر في إبان غفلته جميع حواسه ليطلقها في تلك اللحظات القليلات.

كنا اليوم في حالة من هذه الحالات التي تنتاب المخلوق؛ فقد أقام زوجنا في هذه الحفلة مطلقًا لنفسه العنان يمعن في الشراب واللهو كأنه يودع الدنيا وداعه الأخير، فأكل أكل النهّم، وشرب شراب الظمآن، ورقص رقص

الشياطين، ولم نكن نحن جميعًا أقل منه تهالكًا على اللذات، فشربنا حتى دبَّت النشوة في جميع أطرافنا، وأكلنا حتى ما وجدنا مكانًا لمزيد، ورقصنا حتى خدرت أرجلنا.

كنت أحسب اللذة الجسمية تنتهي عند حد، وأن معدة المخلوق لا تتجاوز حد الشبع من طعام أو شراب، ولكني بعد أن أكلت ما أكلت، وشربت ما شربت صرت أعتقد أن طاقة المخلوق على الطعام والشراب أقوى مما يظن؛ كنت أعجب أين يذهب الطعام والشراب اللذان إن وزنتهما زاد وزنهما عن وزن جسمي، فيا للعجب كيف يدخل إلى جسمي مايساوي جسمي!

كان الشراب يلعب برؤوسنا، فينقلنا إلى عالم الأحلام، فما نرى إلّا أرواحًا كالملائكة تُحيط بنا وتأخذ بأيدينا مراقصة مضاحكة في مؤانسة لا حدّ لها، وكانت الأرواح تتراءى لنا كأنها متزينة بأحسن زينة، وتظهر من أجسامها ما يسلب عقولنا ويدفعنا إلى الإمعان في اللهو والاستمتاع.

أما زوجنا الصالح فقد انقلب في أعيننا إلى روح من تلك الأرواح، وتراءى لنا كأنه آخاها ودخل في زمرتها، فنزعت عليه ألبستها الجميلة، وما امتاز بأعيننا إلا بوجهه المتوج بذلك العرف القرمزي. أما نحن- زوجاته- فكنا بين أيدي تلك الأرواح كالدّمى بين أيدي الأطفال يجرّونها كيف شاءوا، وحيث شاءوا.

وشعرنا بأن تلك الهيبة التي يتحلّى بها زوجنا قد انقلبت إلى إلفة كالتي تكون بين طفلين، وأن تلك الحشمة والكلفة اللتين نصطنعهما في حياتنا قد انقلبتا إلى إلفة وخلطة بالغتين أقصى حدودهما.

ما أذكر أنني شعرت بكامل وعيي وإحساسي كما شعرت اليوم؛ فكأني نمت دهرًا واستيقظت ساعة وأنا على أحدّ ما أكون من النشاط ودقة الحس؛ كنت أشعر أني مخلوق جديد رزق إحساس جيل من الخلق، وقوة عملاق من الجن، وأني أستطيع أن أسير الأيام ببناني.

ظللنا على هذه الحال من الصباح حتى العصر، وما منّا إلّا من يتوقع أن يواصل يومه بليله إلى آخر العمر؛ فمن يصحو صحونا هذا، ومن يستمتع استمتاعنا هذا، وينتقل بروحه إلى عالم الأرواح، ثم يهون عليه أن تنتهي هذه الحالة في وقت قريب أو بعيد؟ ولكن فيما نحن في هذه النشوة هبط علينا عدوّ مخيف، لا أدري من أين جاء، وكيف استطاع أن يجد سبيله إلى عالم الأرواح الذي كنا فيه، فما رآه زوجنا حتى انتفض انتفاضة شديدة، ووقف يقابله وجهًا لوجه، ويظهر أن ذلك العدو كان يرقب ما نحن فيه من لهو وشراب، وكان يحسب أنّا نستسلم له، ولا نجد في أنفسنا ما يرد عدوانه، ولكنَّ زوجنا ظهر في حالة ترعب الرعب، وكأن جميع الأرواح قد اندمجت في نفسه، فانقضّ على العدو مصاولا مقاتلًا. أما نحن فلم نستطع حراكًا؛ فقد تولانا الذعر، وراعنا العدوان الطارئ، فجلسنا نشهد الصراع بين خصمين جبارين. استمر القتال طويلًا، وكان زوجنا يعلو خصمه تارة، ويعلوه خصمه تارة أخرى. وكان الدم يتفجر من جسمه أشد ما يكون حمرة. لقد كان الصراع في حالة توهمنا أن زوجنا هالك لا محالة؛ فقد كان العدو أقسى قلبًا وأشد عنفًا وأطول باعًا من زوجنا. ولكنّ قوة من الله حلت في زوجنا في لحظة، فقرع رأس خصمه قرعة أفقدته رشده فقمنا إليه مهللات مهنئات، فزادت الحمية في نفسه وانقضَّ على خصمه انقضاضة أفقدته الحياة، وطرح الخصم

المعتدي في خارج الجدار. عاد زوجنا إلينا وعدنا نحن إلى أنفسنا نتفقَّدها ونلتمس العودة إلى ما كنا فيه، ولكن ما أبعد ما طلبنا؛ فقد عادت نشوتنا أشبه بحلم، وعادت نفوسنا إلى حالتها الأولى، وفي الحق أنّا لم نفكر طويلًا فيما كنا فيه؛ فقد صرفنا عن ذلك الجروح البالغة التي أصابت زوجنا، ولم تأل كلّ واحدة منا بذل الجهد، وما فوق الجهد في تضميد جراحه ومواساته، ولم نجد خيرًا من أن ننتقل جميعًا إلى مأوانا نستعجل الليل.

كنا من الصباح إلى العصر في حالة وعي عجيبة، وكنا نحسب أن زوال تلك الحالة من أبعد الأمور، فينبغي لنا على الأقل وقت يعادل ذلك الوقت الذي لهونا فيه كي نسترد غيبوبتنا التي تلازمنا في أيامنا، ولكن لم يمر أكثر من نصف ساعة حتى خرجنا من طور اليقظة إلى طور التخدير.

كانت حفلة اليوم حالة من تلك الحالات القليلة التي يستيقظ فيها المخلوق من غفوته، ويعيش بكامل حواسه؛ أفنعود إلى مثلها يا ترى؟

(8)

جلست أفكر اليوم بعد تلك الحفلة في مصيرنا لو قدِّر لذلك العدو أن يصرع زوجنا؛ لا شك في أننا لا نستطيع أن نقاومه ولا سبيل لنا سوى الاستخذاء والاستسلام. قلت في نفسي: ترى ألا يخطر مثل هذا الخاطر في بال زوجنا؟ ألا يقدر ما يكون عليه حالُنا بعد مصرعه؟ وإن فكر فماذا أعدّ لنا من وسائل الدفاع؟ أغلب الظن أنه لم يفكر في شيء من هذا، لأنه لو فكر لأطلعنا على ما هيأ من عدَة.

لقد قادني هذا الأمر إلى الطغيان في الفكر، وإلى الإسراف في الطموح. ولا عجب في ذلك؛ فالقضية قضية موت أو حياة. لقد حملني تفكيري على وجوب التسلّح بمثل القوة التي يتسلح بها زوجنا؛ يجب أن نتخذ العدّة لندافع عن أنفسنا في وقت الشدة، وأن لا نُترك تحت رحمة الدهر القلّب. وما يمنع الأنثى أن تكون كالذكر في مقارعة الخطوب وملاقاة الأهوال، وعراك الأزمات؟ وإلى متى نظل عالة على الذكر نحمِّله مسئولياتنا ومتاعبنا؟ نعم إنّ عليه مسؤولية تعادل ما ركب الله فيه من قوة وبأس، ولكن علينا نحن أيضًا مسؤولية تعادل ما أودع الله فينا من حركة وحياة، فيجب أن لا نقعد، عند الملمات، جزعات، فزعات، مستسلمات مخذولات؛ يجب أن نكون للذكر مصدر قوة لا مصدر ضعف، وإذا لم يركب الله فوق مفرق الأنثى عُرفًا كعرف الذكر فقد ركَّب فيها عقلًا كعقله، ونفسًا كنفسه، وقلبًا كقلبه، وهي إن لم تستطع أن تنافسه وتجاريه، فإنها تستطيع أن تكوّن من نفسها قوة تستقل بها عنه في الملمّات.

لو كان الذكر يدوم للأنثى دوام العمر، ولو كنا نضمن له السلامة والعافية والظفر في جميع الملمّات، لما حق لنا أن ننفذ بآمالنا إلى هذا الحدّ، ولكن لا الدهر مأمون، ولا الأحداث مضمونة، ولا الذكر مكفول العمر، ونحن بين أمرين: إما أن نعيش عيشة الأيم والبؤس والشقاء عند فقد ذكورنا، وإما أن نسلح أنفسنا ضد العوادي والخطوب منذ نشأتنا، وفي أيام صبانا. فنخفف من قسوة الدهر، ونقلِّم من أظفار المصائب.

حملتني تلك الحادثةُ المروعة في يوم الحفلة على إرسال الفكر في مثل هذه التأملات، وأظن أني شططت؛ فليس لي أن أخلق من جديد وليس لي أن أستدرك ما فات، ولكنني أملك التمني والتعزي، ولمن يأتي بعدي

من ذوات العقل النيّر والبصيرة الواعية، أن يتجاوزن حدود الأماني إلى حدود العمل.

(9)

قضينا أسبوعًا كاملًا حول مرقد زوجنا الصالح نعالجه ونضمد جراحه التي أصابته في ذلك الصراع، وكان زوجنا في أثناء هذا الأسبوع منحرف المزاج، كثير التألم والتوجع من جروحه. وكان وجهه تعلوه صفرة، وعرفه القرمزي مسترخيًا قاتم اللون، وكان أحيانًا يرفع صوته بالأنين والشكوى. نظرت في حاله وعجبت لخوره وضعفه بعد تلك القوة وتلك العزيمة اللتين كان يبديهما قبل تلك الواقعة؛ كنت أرى زوجنا في حال من البأس في الأيام السابقة توهمني أنه كفيّ لمصارعة الدهر، ومصاولة الخطوب، ومقارعة الأحداث، فإذا بعد تلك الواقعة يصبح في حالة أضعف المخلوقات. ترى أتغيَّرت روحه؟ أم تغيّر جسمه؟ أم ماذا أصابه؟ وهل المخلوقات من الهوان والضّعة بحيث ينقلب اعتقاده بقوته، وخيلاؤه، في أيام قلائل، إلى انكسار وتراخ وخذلان؟

لقد أتاح لي هذا الأسبوع أن أبلو زوجاته بلاء ما تيسّر لي في أثناء عشرتنا السابقة، وكأن زوجنا كان سمط العقد، فما انقطع حتى انفرطت الحبّات، وذهبت كلّ حبة في سبيلها، أو هو أشبه بعمود البيت سقط فتداعت الجوانب إلى السقوط، ولكن هذا العمود في نفسه، كسائر جوانب البيت، قوة وضعف؛ فهو في مرضه يئن كما يئن كلّ مريض، ويتألم كما يتألم كلّ مكلوم.

لا أستطيع أن أقول إن إحدى زوجاته تهاونت في أمره، وقصرت في أداء واجبها نحوه، أو أنني فقت زوجاته حدبًا عليه ورفقًا به، ولكني شعرت بأنّا لم نكن متساويات في شعورنا؛ سمعت إحدى زوجاته- وهي صاحبة تلك الكلمة في ذلك الصباح الذي خلوت فيه بزوجي دون سائر زوجاته- سمعتها تقول: على الزوجة التي آثرها زوجها بحبه أن تقوم بالدور الأول في معالجته، وعلى تلك الزوجة التي فَتَنَت زوجها واستأثرت بعواطفه دوننا أن تشاركه اليوم في آلامه، أما نحن فماعلينا من ذلك كله. نعم، إنّا نؤدي واجبنا نحو زوجنا العزيز، ذلك الواجب الذي فرضه علينا الدين والخلق، ولكن لا نستطيع أن نتكلف ما فوق طاقتنا؛ لقد خُلق ليلنا للنوم ونهارنا للعمل، فإذا جاء الليل اتخذناه لنا لباسًا، وما استطعنا أن ندفعه عنا، وحين يأتي النهار نتفرّغ لواجباتنا دأبنا كلّ يوم! والله لقد كانت كلّ كلمة من هذه الكلمات التي تفوّهت بها تِرْبي أشد عليّ من وقع السهام، لست أفتخر إذ أقول إني ما شعرت بالنوم إلّا لمامًا في أثناء تمريض زوجي، ومن أين لجفنيَّ التغميض وجفنا ذلك الزوج الصالح مفتحتان؟ ومع ذلك فلست بزاعمة أن تلك الترب الطيبة كانت أقلّ مني عناية بزوجنا، ولكنّي أظن أن قلب المخلوق لا يسعه أن يخلو من الغيرة، وأرى من الإنصاف أن أذكر موقف إحدى أترابي الطيب؛ فقد كانت تبالغ في خدمة زوجنا وتخلِّي نفسها من كلّ شغل سواه، فلا يطلب حاجة إلا تبادر إليه بها، كأنها أنشطنا حركة، وأسرعنا خطوًا، وهي في الواقع أكبرنا سنًا، وأضعفنا جسمًا، ولست أعجب لموقف تلك الترب؛ فإنها في نظري مثال الاتزان والكمال، وحسن الخلق وطيب النجار. وهي لا شك نبيهة ذكية الفؤاد دقيقة الحس ولابد أن تكون قد أحسَّت في ذلك الصباح الذي خلوت به بزوجي ما أحسَّ به سائر الزوجات، ومع ذلك لم تُبد ما يُشعر

بالانحراف عن مسلكها، لا في أيام مرض زوجنا ولا قبله. أما الترب التي أتورّع عن وصفها بالتحديد خشية أن أنال من كرامتها فقد كانت تُشغل عن زوجها من حين لآخر بطعامها وشرابها؛ فإذا جاء وقت الطعام لم تبال بما حولها، وكانت الدنيا عندها تسير سيرها المألوف. ولو وقعت في تلك الساعة صاعقة على غيرها ما نفضت يدها من طعامها. إنني لا أتحامل على هذه الترب ولا أسلقها بلساني؛ فقد عرفت فيها نهمها وشرهها قبل هذا الأسبوع، وما دامت مسوقة بطبيعتها فلا جُناح عليها.

إني إذ أمارس هذه الحالات وأبلو هذه المواقف أحمل على درس طبائع المخلوقات والحكم عليها؛ فمن المخلوقات من ركب فيه الحسد والغيرة، ومنهم من ركب فيه الشهوة العنيفة للذة من اللذات، ينفق في طلبها ما يملك، ومنهم من وهب الحكمة والسداد والاعتدال فلزمها في حياته جميعها، ومنهم من رزق الحب والإخلاص والتضحية فشارك أصدقاءه في بؤسهم ونعيمهم وضرَّائهم وسرَّائهم على السواء.

إن كان هناك شيء يبهم عليّ ويستغلق فهو سر هذا الاختلاف بين المخلوقات، وما أدري إلى أي حد يُسأل المخلوق عن خلقه وطبيعته، مادام بريئًا من كلّ قدرة على تكوين نفسه بنفسه، ومادام مدفوعًا إلى ما ركب فيه دفعًا لا قدرة له عليه، ولكن من أين للمخلوق سعة الصدر، ورحابة الفكر وسمو النظر، التي تحمله على أن يبرّر موقف كلّ مخلوق في الموقف الذي يتخذه. تلك لا شك سجايا ينفرد بها الأقلون، ومن رُزقَها رُزقَ السعادة والطمأنينة وراحة الضمير.

نحن جميعًا زوجات متساويات في الحقوق والواجبات، وموقفنا نحو

زواجنا واحد، ومع ذلك فقد اختلفت طبائعنا، وتباينت أهواؤنا، وإن اتفقنا جميعًا في الظاهر على وحدة الشعور نحو زوجنا. لقد قلت إننا نتساوى في حبه وإجلاله، وأرجو أن أكون مصيبة في قولي، وإلا فويل للمخلوق من المخلوق، ويا لشقاء زوجنا بنا!

(10)

ضاق صدري بما رأيت من أترابي اللواتي وصفت طبائعهن فيما سبق، ويظهر أن تلك الطبائع بدت على أوضح صورة في أثناء مرض زوجنا. فتِرْبي الغيورة تمادت في غيرتها، وتِربي النهمة الأكول أسرفت في معالجة معدتها، وبالغت في إظهار أنانيتها، وهكذا أخذت كلّ ترب تطلق لطبعها العنان.

وأظن أن مزاجي صار حادًا في هذه الفترة، فلم أطق السكوت والتجمّل بالصبر؛ فأسمعتهن ما لا يسرّهن، وعندئذ توسطت تلك الترب العاقلة الرزينة بيننا، وأخذتني جانبًا وشرعت تخفف الخطب عليّ قائلة: ليس هناك ما يدعوك إلى التبرّم، وأنت من عرفت سعة صدر وبعد نظر، وحسن كياسة، فقلت لها: أليس يؤلمك كما يؤلمني أن تَرَي كلّ زوجة تمعن في شهوتها دون اعتبار مصلحة المجموع؟ ألسنا هنا متكاتفات متضافرات على تحقيق سعادة الأسرة بكاملها؟ ألا يجب على الفرد أن يضحي من مطامعه في سبيل تحقيق الوحدة والانسجام والسرور للجميع؟ قالت: ولكنك تعلمين أن الطبائع في المخلوقات هي من صنع الخالق، وليس للمخلوق حريّة تكوين طبائعه، ومن جهة أخرى من ذا الذي تصفو

مشاربه؟ ومن ذا الذي يُقرّ بعيوبه؟ وأغلب الظن أن أترابك يرون فيك ما ترين فيهن، ولو سألت إحداهن عن رأيها فيكِ لوجدت مجالًا للقول ذا سعة كما تجدين. قلت لها: إنني لا أدعي الكمال لنفسي، ولا أبرِّئها من مستقبح الطبائع، وأنا مستعدة أن أسمع رأي غيري فيّ، وأن أروّض نفسي على ما يشتهيه إن كان في هذه الرياضة ما يحقق السعادة لجميع الأسرة. وأنا أحكِّمك في أمرنا وأطلق لك حق الفصل فيما يزعمون. قالت: أشهد أني لأرى فيك الاعتدال والحصافة والنبل، ولست في حاجة إلى أن تحكميني؛ فليس هناك موجب لتكوين قضية يحكم فيها قاض. قلت: إنك تتكلمين مستوحيةً صفاتك وسجاياك، وما أرى النعوت التي خلعتها عليّ إلّا نعوتًا لك أنت، فدعينا من تبادل المدح ولنشترك معًا في النظر في معالجة هذه الطبائع، عسانا نصل إلى تحقيق الوئام والتعاون على أحسن حال، وأنت يعنيك هذا الأمر كما يعنيني فلستِ بغريبة عنا، ولست بقادرة على أن تنفضي يدك مما يجري بيننا، وإذا وفّقنا إلى الوصول إلى علاج حاسم فسينالك سهمك من السعادة التي ننشدها، وأنت بعد مسؤولة عن تحقيق السعادة للأسرة بكاملها لأنك إحدى أفرادها العاقلات، ومسؤولية العاقل فوق مسؤولية الجاهل. قالت: نِعْمَ ما تقولين؛ فهاتي رأيك! قلت: لا أريد أن أعرض عليك رأيًا، وإنما أريد أن أحاورك رجاء أن نصل معًا إلى نتيجة فاصلة. ألست ترين أن جميع الطبائع ناتجة عن طبيعة الحياة التي يحياها الخلق، فالحسد مثلًا ناتج عن حرمان الكاذب من الوسائل التي تُبلغه ما يريد، والنفاق ناتج عن خوف المنافق من سطوة من ينافق، والشره ناتج عن خوف الشره من فوات ما يشتهيه من طعام أو شراب، والخيانة ناتجة عن فقدان التساوي بين الناس، واستئثار بعضهم بالسلطان دون بعض، ورغبة الخائن في تحدّي تلك السلطة والقضاء

عليها أو مخادعتها مهما كلفه الأمر، وأستطيع أن أسرد عليك سائر العيوب والطبائع، وأن أثبت لك أنها ناتجة جميعها عن اختلال في النظام، أو طغيان في الحكم أو استبداد بالرزق، أو استئثار بالخيرات. فقالت: أتريدين أن تزعمي أن من اليسير محو الطمع والظلم والأثرة والفساد وما إلى ذلك من العالم؟ أتريدين أن تفعلي أنت، أنت نفسك ما عجز أحكم الحكماء عن فعله؟ قلت: أنت تتناولين البحث من قاعدة الهرم فتتناولين العالم أجمع، وأنا أحب أن أبدأ من رأس الهرم فأتناول هذه الأسرة التي تخضع لمزاج واحد وبيئة واحدة، وحياة واحدة، ولست أقصد أن أظهر لك بمظهر الأناني الذي لا يعنيه من المخلوقات سوى بضعة أفراد، ولكني أريد أولًا أن نبدأ من نقطة ثم نتوسع إلى أن نبلغ قاعدة الهرم، وثانيًا ليس ما يمنع المخلوقات جميعًا أن تنظر في حياتها على النحو الذي ننظر نحن فيه، وإن كان هناك رأي صالح أو فكرة نبيلة فليس ما يمنع انتشارها بين الناس جميعًا.

قالت: إني أعترف لك بحسن القصد، ونبل الغرض، ولا أريد من مساجلتي إياك مقاومة لآرائك، ولكني أسألك في أي أسرة تحققت مُثُلُكِ هذه؟ فلست أعرف بيئة خلت من أثر من آثار الطبائع البشرية، أو لون من ألوان المساوئ الاجتماعية، ولو كان مجال تحقيق المثل العليا يسيرًا لوجب أن نرى نتائجه في بيئة من بيئات الخلق في قديم أو حديث، ومن جهة ثانية يتراءى لي أنك أخفقت في تطبيق مبادئك في أسرة صغيرة قليلة الأعضاء كأسرتنا هذه. قلت: أفهم منك أنك متفقة معي على علاج المبادئ التي ذكرتها، وأنك مختلفة معي في تطبيقها؛ فإن كان الأمر كذلك فإني أعدك أن أبذل جميع قواي في تنفيذ هذه المبادئ بنفسي، وفي حمل من يلوذ

بي على تطبيقها، وفي إقناع من لا يشايعني بصحتها، وناصحًا ومرشدًا في أثناء حياتي الجديدة، قد أكون مسرفة في حسن الظن، وقد أكون مبالغة في اعتدادي بمواهبي وكفايتي، وقد تشكين أنت في إمكان تحقيق مبادئي، ولكني أعتقد أنك واثقة بسموّ هذه المبادئ، وبرغبتي الصادقة في تحقيقها، ليس لمصلحتي ولكن لمصلحة المجموع. قالت: إني أؤازرك في كلّ ما تقصدين منه تحقيق سعادة المجموع، وحبّي لك يمنعني من أن أحول بينك وبين تجربة قد تشقيك أو تُرديك، وما دمتِ توجبين عليّ حق النصح والإرشاد فإني أبادر بإسداء نصحي إليك بأن تتريثي فيما أنت قادمة عليه، وأن تستعيني بالرفق والتؤدة كي لا تفقدي عملك وأملك في وقت واحد.

وما كاد ينقضي هذا الحديث حتى سمعت تِرْبي الغيور تصيح قائلة: كفاكما استمتاعًا بالراحة والسمر، ونحن نؤدي عنكما واجباتكما؛ هيا أقبلا فليس الهرب وسيلةً صالحة لتجنب المسؤولية.

فابتسمت تِربي ابتسامة بينة المدلول، وقالت: هيا فقد بدأ العمل! ولا أريد أن أكلفك سوى أمر واحد، وهو أن تكوني لي عونًا.

(11)

منذ اليوم الذي صممت فيه على تنفيذ مبادئي التي رسمتها لمعالجة أخلاق أترابي وأنا في جهاد عنيف معهن؛ فقد أخذن يظهرن عدواتهن لي بلا ترفق، وكأن عداوتهن كانت نائمة فأيقظتها بيدي. ومن أغرب ما بلوت من أخلاقهن أنهن اتّهمنني بما أظهرت من عيوبهن؛ فكنت إذا قلت

للحسودة: ما لك تنفسين عليّ حبّ زوجي لي وحبي له، وأنت تعلمين أنّي ما تكلفت الحيلولة بين قلبه وقلبك، بل ليس في مقدور إنسان أن يحول بين قلبين، تقول لي: أنت الحسودة، وحسدك هو الذي صوّر لك هذه الآفة فرميتني بها، وكنتُ إذا قلت للأكولة: إن الإسراف في الأكل شره وخيم العواقب، وأنت في غنى عنه مادمنا جميعًا ممتعين بنعم الله على السواء، قالت: والله ما عرفت النّهم إلّا فيك، وما عرفت وصفه إلّا منك، وإذا قلت للمنافقة: ما لك وللمواربة والرياء والنفاق، وأنت تعلمين أن ظاهرنا كباطننا، وباطننا كظاهرنا؟ تقولي لي: إنك لترميننني بدائك، وتتسترين بالصراحة والإخلاص كي لا ينكشف أمرك، وإذا قلت للكاذبة: ليس ما يحملك على انتحال الكذب، لأنك بعيدة عن المؤاخذة، إن عثرت أو أخطأت، ولا يمكن أن تستري ذنوبك بالأكاذيب، قالت: على لسانك نبت الكذب، وما أعرف أنّي زللت حتى أستر زلّتي بالكذب.

ويعلم الله كم حاولت أن أترفق بأترابي، وأن أبالغ في مرضاتهن وأن أصف عيوبهن ألطف وصف، ولكن أنَّى للرفق أن يصيب وقد أخطأ النصح، وذلّ الإخلاص عند هؤلاء الأتراب؟ كنت أتوهم أنهن يشعرن بالبلسم الذي أضعه على جروحهن، فإذا هنّ يرين ذلك البلسم فلفلًا تحشى به جروحهن.

ولما رأين مضاء عزمي، وقوة تصميمي على ملاحقتهن، غير آبهة بما يقلن، تذرعن بشر الوسائل في مقاومتي؛ فعقدن بينهن حلفًا شططن فيه أي شطط، فتعاهدن على مخالفة رأيي في كلّ ما أقول سواء أحقًا كان أم باطلًا؛ فإذا جاء وقت الطعام وقلت لهنّ: تفضلن للطعام فقد حان وقته؛ قلن مستهزئات: يا للشره! لقد صوّر لها شرهها أن الزمن أسرع في خطاه،

وما بعد هذا الشره شره، وإذا قلت لهن: الهواء بارد فالزمن مأواكنّ، ولا تتعرضن لشره، قلن: كذبت وأردت أن تستأثري بالهواء العليل دوننا. وتعاهدن على أن يسخِّفن آرائي، ويبطلن أقوالي كي أفقد الثقة بنفسي. فإذا قلت لهن: أرى الصحة بادية على وجه زوجنا اليوم، قلن لي: إنك مغرورة تدعين ما لا تعرفين، وتعاهدن على أن يُفسدن ما بيني وبين زوجي بلا قصد ولا احتياط، فإن قلت كلمة صدق حملنها إليه مؤوَّلة شر تأويل؛ فَقَوْلي لهن: إن زوجنا بصحة جيدة حملنه له على أنه تهرّب مما يجب عليّ نحوه من خدمة وعناية.

على أن حلفهن عليّ وكيدهن لي لم يصرفاني عما عزمت عليه، وما زادني عداؤهن إلّا ثقة بنفسي، وإيمانًا بصحة مبادئي، ووثوقًا بأنهن في أشد الحاجة إلى من يصلحهن، وإن أعجب لشيء فعجبي للفضيلة كيف تذكي الرذيلة بدلًا من أن تحصرها وتقضي عليها، ولعلي متعجلة النتيجة كاملة؛ فمن أول بوادر الانهزام في صراع الفضيلة مع الرذيلة أن تنكشف الرذيلة وتظهر بكامل قواها، ولا شك في أن طبائعهن التي أخذت أعالجها ظهرت بكامل قوتها، ولو كنّ أظهرن الرضى والاستسلام في أول النزاع لاعتقدت أنهن يبطنّ غير ما يظهرن، وأنهن يلتجئن إلى المواربة والنفاق ليأمنَّ مقاومتي لهن، وعندئذ ينتقلن من رذيلة إلى رذيلة، بل ينتقلن من رذيلة إلى رذائل، ومن أجل ذلك ما أوهنَّني بمقاومتهن، بل زدنني إيمانًا وثقة وعزيمة. إن نفسي لتشعر بروعة الجهاد إلى جانب ما شعرت به من جلال المبادئ، وما كان العنف ليزيد المبادئ الشريفة إلّا قوة ومضاء، وما كانت المقاومة لتزيد ذوي المبادئ إلّا قوة احتمال ومناعة.

أرادت تربي العاقلة أن تتوسط بيني وبين سائر أترابي حين رأت الخصومة

تزداد قوة يومًا فيومًا؛ فجاءتني تقول: منذ أخذتِ على نفسك أن تعالجي طبائع غيرك وأنت تبلين ضروب المحن والأهوال، ولم يكسبك عملك إلا صريح العداوة وعقد المحالفات، ولقد كنتِ من قبل في غنى عن هذا كله، فكفِّي عن مسعاك والزمي نفسك، وإن شئت أن تنشري الفضيلة وتقمعي الرذيلة، فليكن ذلك بظهورك للمخلوقات متحلية بالفضيلة فيروها بك حية نشيطة، بدلًا من أن يروها في صورة أصوات جوفاء جامدة، وبذلك تأمنين الشر والنزاع وتكسبين العافية.

قلت لها: أترين أن العجز عافية، والاستسلام نجاح، والإخفاق توفيق؟ فأنت أيتها العزيزة بين أمرين: إما أنك تؤمنين بصحة مبادئي، وإما أنك لا تؤمنين؛ فإن كنت مؤمنة فمثلك من لا يوثر السلامة والعافية على الاستسلام والاستخذاء، وإن كنت غير مؤمنة فقولي لي إني ضالة. فقالت: لا أظنك تنكرين أنك أثرت كوامن البغض والعداوة في نفوس أترابك، وأنك بعملك هذا أشعلت الخصومة وأذكيت الشر، وقد كنت من قبل في حل من هذا، أما ترين الآن أنك أفسدت الحياة من حيث أردت الصلاح، وأسأت من حيث طلبت الصواب، وغويت من حيث التمست الرشد؟ إنك لم تُعيني الفضيلة بل أعنت الرذيلة، ولم تقوّي المبادئ الصالحة بل عززت المبادئ الطالحة. فقلت لها: إنك تحكمين بظاهر الأمر، ولو كنت تنعمين النظر فيما ترين لتبيّن لك أنني لم أخلق جديدًا ولم أبعث ميتًا، وإنما كشفت مستورًا وأظهرت مخبوءًا؛ فقد كانت علاقاتنا في أسرتنا تقوم في ظاهر الأمر على المحبة والتفاهم، وفي الباطن على المداهنة والمراءاة والمخادعة، فأصبحت اليوم تقوم في ظاهر الأمر وباطنه على أمر واحد هو الصراحة والصدق، وهذا غنم لا غرم كما توهمت، ثم إن دعوتي لإصلاحهن أوقفتهنّ

على حقيقة طبائعهن، وقد كن إما مخدوعات بأنفسهن وإما مكابرات؛ والآن ظهر لهن من يريهنّ طبائعهن على حقائقها، سواء أرضين أم لم يرضين، ولابد يومًا من أن يرين صدق تصويري طبائعهن وإخلاصي لهن، وأن يرعوين عن ضلالهن، ولو لم أكاشفهن لظللن يعمهن في غوايتهن، وهذا لا شك غنم لاغرم، ثم إن موقفهن مني وخصومتهن لي جعلا الفضيلة والرذيلة متقابلتين وجهًا لوجه، فهما الآن في صراع عنيف، وإن كنت مؤمنة بمبادئي- كما قلت- فلابدّ أن تشهدي بعينيك ظهور الأولى على الثانية، عاجلًا أو آجلًا، ويكونُ عملي حينئذ قد عجّل انتصار الحق على الباطل. ولو لم أفعل ذلك لتأجَّل هذا الانتصار حينًا آخر من الدهر، وليس ألذ للنفس من أن تشهد صرع الرذيلة بأم عينيها، وهذا ولا شك غنم لا غرم.

فأنت ترين إذن أني لم أخفق في مبادئي، ولم أُعِن الرذيلة على الظهور كما تراءى لك في بدء الأمر. فقالت: أشهد أنك لمرزوقة العزم والصلابة والإيمان، فقلت لها: أعينيني بنصحك، وبصريني بعيوبي فذلك أخلق أن يعجل لي التوفيق. فأسرعت إليّ وقبلت رأسي قائلة: منك النصح، وبغيرك العيوب، ولك التوفيق. فزادني كلامها ثقة بنفسي، وإيمانًا بمبادئي واستبشارًا بالظفر.

(12)

بعد أن أشرف زوجنا على البُرء من مرضه، ومكث أيامًا يستجمع قواه ونشاطه، إذا به ينتكس فجأة ويعاوده المرض بصورة أشد فيلتزم مأواه في

حالة صراع شديد مع آلامه؛ كان جسمه في هذه المرة أقلّ مقاومة للمرض، وبدت عليه مظاهر الضعف والانحلال، فذهب ذلك اللون القرمزي من عرفه، وحلّ محله لون أسمر أغبر، وذهب الإشعاع الذي كان يتدفق من عينيه، وعاد النشاط الذي كان يبدو في حركاته سكونًا.

وكنا حين ندخل عليه ونراه في مرضه نعاني الألم المبرّح، وتنقطع أفئدتنا عليه، ويغشانا حزن شديد؛ كنت وزوجاته نعرض عليه خدماتنا ونلح عليه في أن لا يتردّد في تكليفنا إسعافه وتقديم ما يحتاج إليه. ولا شك أنه كان يلمح في أصواتنا الإشفاق والإخلاص، فكان لا يتمالك أحيانًا من إظهار ألمه، ويسألنا أن نقدم له ما يخفف آلامه. وما كان ما نقدمه له من طعام وشراب ودواء بموصله إلى ما يريد؛ إن الأصحاء الذين يشرفون على معالجة المرضى يستطيعون أن يفعلوا كلّ شيء في سبيل راحتهم، إلا شيئًا واحدًا هو رد الصحة المفقودة، والعافية المسلوبة. ويعلم الله أني كنت في حال لو أستطيع معها أن أشاركه في صحتي وعافيتي ما تأخرت. وكل ما يملكه المخلوق يمكن أن يعار عدا الصحة فإنها لا تعار، ولا تنتقل إلى آخر.

كان زوجنا إذا اشتد ألمه، وشعر بالضعف يسري في دمه، يتمنى لو أنه يستطيع أن يخرج إلى الساحة ليستنشق الهواء كما كان يفعل في السابق، ذلك الهواء الرخيص المبتذل الذي كنا نعبّ منه حتى نملَّه.

واعجبًا للمريض..! إنه يرى الصحة أعز شيء عنده في حالة مرضه.

فإذا ما لبس ثوب العافية وعاد إلى حياته المألوفة، غرق في لجة النسيان ولم يفطن لقيمة الصحة، حتى الأعمال العادية التي يتبرّم بها السليم في

كثير من الأحيان يتمنى وهو مريض أن يعود إليها مؤليًا على نفسه ألا يتبرم بها. والصحة لا قيمة لها في نظر السليم، أمّا المريض فيراها أغلى ما يمكن المخلوق أن يملكه في حياته. ولو كان المخلوق يقدر الصحة في حالة الصحة لحرص عليها وسعى لدوامها. ولكنه للأسف تغمره في حال صحته مشاغل الحياة بل سخائف الحياة.

ظل زوجنا العزيز يعاني تباريح المرض أسبوعًا كاملًا أسلم في نهايته روحه لباريها. ويل لي من ذكرى تلك الساعة التي رأيته فيها في صراع عنيف مع الموت؛ كم كنت أتمنى لو سبقته إلى القبر وسلمت من رؤيته على تلك الحالة. وفي أواخر ساعات حياته رأيته وكأنه ألقى سلاحه وكفّ عن الصراع؛ إذ تبين له أن خصمه أقوى من أن يقهر، وأشدّ من أن يغلب، فبدت على وجهه صفرة الموت، وتراخت أطرافه وهدأت حركته، وجمد الدم في عروقه.

ما كنا نستطيع أن نحادثه في تلك الساعات؛ إذ كان لسانه معقودًا وفمه مغلقًا، في أكثر الأوقات، ولكنا كنا نلمح في وجهه أثر الصراع العنيف الذي يبدو على المستميت في القتال، وأغلب الظن أن تلك الساعات كانت ساعات صراع بينه وبين فريقين من الأرواح: الفريق الأول أرواح طاهرة صالحة رفيقة مؤنسة مؤمنة، كانت تتحدث إليه في خفية عنّا، داعية إياه إلى التجلد والصبر، والفريق الثاني أرواح شريرة قاسية موحشة، تنكّل به أشد تنكيل، وتدخل الرعب في قلبه وأرى أن الفريق الأول هو حسناته تتزيا بزيّ الملائكة الأبرار، والفريق الثاني سيئاته التي كانت تتزيا بزيّ الشياطين القساة. ولابد أن يكون الفريقان قد التحما مرارًا متصاولين متبارزين إلى أن جاء المبعوث من الله فانتزع روحه من كلا الفريقين، ونقلها إلى حيث قدّر لها أن تنقل.

وما إن أسلم زوجنا روحه حتى هرعنا إليه وانكببنا عليه نذرف الدموع مترحمات متوجعات؛ كنا نبكي وننتحب ما شاء لنا البكاء والنحيب. ولكنا لم ننتفع بما ذرفنا من دموع، ورأينا أن التجمّل بالصبر هو آخر سلاح المفجوع، فنقلنا زوجنا من مأواه إلى مثواه. وبعد أن عدنا إلى مستقرّنا عاودنا التوجع والتفجع حتى كدنا نشعر أن نفوسنا تحاول أن تجد لها مخرجًا من أجسامنا، ويا ليتها خرجت. واعجبًا لتلك القوى وذلك البأس وذلك الزهو أين ذهبت! هل يفطن المخلوق في أثناء حياته إلى أن جميع ما يفتخر به من زهو وقوة وسلطان، ومايُزهى به من ملك وجاه، ومايعتزّ به من أصحاب وأحباب، إن ذلك جميعه لا يغنيه في ساعة ما فتيلا، وإن جميع ذلك يعود في ساعة ما إلى العدم. إن ما يفتخر ويعتز ويزهى به الملخوق يسقط معه، كما يسقط الريش الواحدة تلو الأخرى، فيعود كما خلق حفنة من تراب تذوب كما يذوب الملح مع تعاقب الأيام. وإني إذ أطلق لفكري التأمل في هذه النتيجة التي لا مناص منها أعجب للمخلوق كيف ينسى تلك الساعة الرهيبة، فيمعن في التجنّي والإسراف والزهو والكبر، أعجب للمخلوق كيف ينسى وهو يذكّر كلّ يوم بتلك الساعة الرهيبة بما يرى من أموات، وما يسمع من أصوات ناعيات، إنه لو فكر في حاله التي سيصير إليها ما ظلم، وما أساء، وما خدع، وما نافق، وما عرف سوءًا في حياته قط. ولو تذكر كلّ مخلوق تلك الساعة لكان العالم أحسن حالًا، وأنعم بالا، وأسمى خلقًا، وأشرف عملًا، وأحرص على سعادة المخلوقات. ولكنّ المخلوق ينسى مصيره.

أحقًا إن ذلك الزوج الصالح، وذلك الجسم القوي المتين، وتلك المزايا العليا ستصبح بعد حين حفنة من تراب؟ أجل إنه صائر إليها لا محالة، ولكن

صفاته وشمائله ستنجو بنفسها وتعود إلينا حية كما شاهدناها. إن الجسم المصنوع من المادة هو الذي يصبح حفنة من تراب، وأما الشمائل والأخلاق فتلك ليست من مادة ولن تصبح حفنة من تراب. فنحن اليوم إن نَعُدْ إلى مأوانا لا نقف له على أثر، ولكنا نحسّ إحساسًا شديدًا بتلك الروح العظيمة وتلك السجايا النبيلة. ولو كانت مصنوعة من نفس المادة التي صنع منها جسمه ما أحسسنا بها؛ أَلَا يجب علينا بعد هذا أن لا نسرف في رعاية الجسم وتقديس المادة على حساب الروح والأخلاق والمبادئ؛ إن المخلوق الذي يحب المادة لا يلام على حبه إياها لأن جسمه صنع منها، والتجاذب بين الجسم والمادة لا يمكن أن يصرم، ولكن أليس هناك في الجسم وغير الجسم أشياء وأشياء ينبغي للمخلوق أن يحبّ من أجلها الروح والمبادئ؟ أَلَا يجب عليه أن يؤثر الثاني على الأول لأن الأول إلى فناء والثاني إلى خلود؟! ألا يجب عليه أن يعطي المادة ما تستحق دون إسراف وأن يعطي الروح ما تستحق دون قبض أو تقتير؟

ليس لي من وراء هذه الأفكار ما ينفع، ولكني في حقيقة الواقع أرى فيها عزاء لما أنا فيه من حزن مبرّح. وإذ أعود إلى عقلي أستمد منه التجلد، والصبر يزيد إيماني بقوة الروح وقيم الفضائل، وتزيد ثقتي بمبادئي التي مابرحت أفكر في بثها بين أترابي.

(13)

اللهم قد جفت دموعي لكثرة ما بكيت على ذلك الزوج الصالح- بلَّ الله ثراه- ولكن ما نفع البكاء والعويل؟ والذي نفسي بيده لو كان بكائي

عليه يرده إليّ لبكيت ثم بكيت إلى ما شاء الله، ولو كان حزني وتوجّعي يردانه إليّ لحزنت وتوجعت إلى ما شاء الله، بل لو كنت أستطيع أن أفديه بمهجتي لفعلت بلا تردد ولا توان، وإني يوم تمنيت أن أمتحن بصحتي ودمي وروحي لأثبت وفائي ما شططت ولا بالغت.

وافجيعتاه! لقد انهار عمود بيتنا، وحامي حمانا، وأسد عريننا، وأصبحنا نهبة لكل غاز؛ فمن يردُّ عنا اليوم العادي والباغي؟ ومن يدفع عنا الشر والعدوان؟ لقد أصبحت حياتنا بعد زوجنا أمرَّ من العلقم، ولولا أن في تمنّي الموت نكرانًا لنعمة الخالق لتمنيته، ولولا أن الانتحار ثورة طائشة على حكم الله لالتجأت إليه في رضى واطمئنان.

إيه أيها الزوج الصالح! لقد عُمِّرْتَ مكرّم الخلق، محمود السجايا مبرور الأعمال، متحليًا بأجمل ما يتحلّى به مخلوق في هذه الحياة، وغادرتنا فغادرت وراءك حسرات مستقرات في الأعماق، وكلومًا بالغات ساكنات في الحشايا والضلوع، وجفونًا مقرَّحات مغرقات بالدموع، ونساء باكيات نائحات مالهن من نصير، وأيامَى ثاكلات نادبات مالهنّ من معيل.

اللهم إنا نعتصم بك لتقينا شر السخط على نعمتك التي أنعمتها علينا، اللهم اغفر لنا وارحمنا وجمّلنا بالصبر.

ما رزؤنا بهيِّن حتى ننساه، وما مصيبتنا بيسيرة حتى نتحملها؛ فإن زوجنا يتمثل لنا في كلّ ما نراه؛ في الطعام وفي الشراب، في الأرض وفي الهواء، في المأوى وفي الساحة، في السكون وفي الحركة، في الليل وفي النهار، وفي كلّ وقت وفي كلّ مكان.

إنا نخرج اليومَ في الصباح نلتمس الطعام والشراب على غير هدى؛ فواحدة

تشرق وأخرى تغرب، وهذه تمشي وتلك تجلس ولولا هذا السور الذي يحيط بمأوانا لانحل عقدنا، وتشتت شملنا، ولولا فضل من عقل، وبقية من إيمان لحل بنا الهلاك.

كانت تِرْبي العاقلة الرشيدة في هذه الأيام السوداء أرجحنا عقلًا، وأقلنا استسلامًا لَلأحزان وأحرصنا على جمع الشمل؛ فقد جمعتنا يومًا وقالت: إنني أعلم ما وقع بينكن ولا أحسبكن بعدما أصابنا من فجيعة بعائدات إلى ما كنتن فيه، ونحن الآن نجابه خطر الغزو والعدوان، فإن عدتن إلى ما كنتن فيه من خصام وخلاف فَسَيُبْطَشُ بنا جميعًا دون رحمة ولا شفقة، وإن اعتصمتن بحبل المحبة والوفاق وقفتن متكاتفات ورددتن بوادر الاضمحلال، ونحن وإن كنا إناثًا ضعيفات فإن الله معنا ما دمنا مع أنفسنا، فضعيفان مؤمنان متحدان أقوى من قوي باغ معتد، لأنّا نستمد قوتنا من الاتحاد والحق، ويستمد عدوُّنا ضعفه من البغي والعدوان. ونحن إن وقفنا في وجه العدوّ الباغي سواء أذكرًا كان أم أنثى جسمًا أم روحًا فلا نقف إناثًا في وجه ذكر ولا ضعيفات في وجه مسلح، ولا أجسامًا في وجه جسم هائل، وإنما نقف حقًا في وجه باطل، وقوة في وجه بغي، وإيمانًا في وجه كفر، وخيرًا في وجه شر؛ فتماسكن وتكاتفن والله يحرسكن ويرعاكن.

كانت تربنا الرشيدة تتكلم وصوتها يدوي في آذاننا كأنه ممزوج بصوت من خالق، وما كادت تنتهي حتى فتحت فمي لأؤازرها في دعوتها، ولكني ما كدت أنطق بكلمة حتى صاحت بي إحدى أترابي ممن تزعَّمن الحلف عليّ تقول: اصمتي؛ فالكلمة لي، فتولاني الجزع خشية أن يبدر منها مايفسد الدعوة الطيبة، ولكني سمعت منها كلامًا أدهشني؛ قالت: أيتها

الأخت العزيزة لقد تكلمت بإيمان وإخلاص عظيمين! ولكنك أسأت الظن بنا، وقدرت ما لم يدر في حسابنا.

أتظنيننا من البله بحيث نغفل عن حاضرنا ومستقبلنا؛ فأي مخلوق يلتجئ في مثل هذه الحال إلى شقاقٍ فمصيره التهلكة، ليس لنفسه فحسب ولكن لنفسه ولغيره على السواء، وقامت ترب ثانية وقالت للسابقة: ليس والله الحاضر ولا المستقبل هو الذي يدعونا إلى الاتحاد والوفاق، وإنما هو الماضي، وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى خنقتها العبرات وعجزت عن تتمة الكلام، وما رأيناها تبكي حتى هطلت دموعنا كالمطر يتساقط بعد انحباس، وكأن الصبر خاتم منع انصباب الدموع ففضه بكاؤها. وانهالت العبرات، وفي تلك اللحظة الرهيبة قامت كلّ واحدة إلى تربها التي بجانبها تكفكف عبراتها وتواسيها وتعزيها، وكان بجانبي تِرْبي التي وصفتها بالحسد، والله لقد كانت أحدب عليّ من نفسي فما كدت أراها مواسية حتى قمت إليها وقبَّلْتُ عينيها وقلت لها: سبق أن أسأت الظن فاغفري لي سوء ظني، واعفي عني. فقالت: أي سوء ظن وأي غفران تذكرين؛ فوالله لقد كنا نرى في عينيك الحب الخالص، والعطف الصادق، والتضحية العالية. فصاحت تِرْبُنا الرشيدة: لَكُنَّ الله! لقد كنتن أفصح نطقًا، وأبلغ عملًا، والله إنكن لتثبتن أنكن أطيب مني قلبًا، وأوسع مني صدرًا، وقد كنت أخشى أن تحل بنا الهزيمة بعد الحزن والألم، فكنت متجنية عليكن؛ إذ تبين لي أن الألم جمع بين قلوبنا بعد أن طهرها مما شابها، فقلت أيتها العزيزة إنه لما يسوؤني أن أراك تعتقدين أن الألم لا الحب هو الذي وحد بين قلوبنا، حقًا إن الألم بليغ ونفّاذ، ولكن الحب أبلغ وأنفذ.

ونحن وإن جمعنا الألم في هذه اللحظة فسيجمعنا الحب طوال العمر؛ إن الحزن يوحد الحزانى، والحب يوحد المتحابات، وحياة المخلوق تقوم على الحب لا على الحزن؛ فلنعش إذن متحدات متكاتفات على الحب دون الحزن. لقد كان زوجنا في حياته سمط العقد وعمود البيت، فلنحافظ على هذا الجمع بعد مماته، ولنتعاون على بناء بيتنا من جديد. وقمت وقامت الأتراب ودخلنا مأوانا نلتمس الراحة في هدوء.

(14)

لله دنيا الحبّ ما أجملها وأقواها! إنها جميلة لأنها تشيع الحنان والرحمة والتفاهم والإخاء، وتبعث الرضى والسرور، والبهجة والاطمئنان. وهي قوية لأنها قادرة على أن تصنع ما يُعجز جميع القوى.

إن الحب نور يملأ القلوب ويوحي إليها الطهر والوداعة والرفق والشفقة والحنو والحنان. إن الحب إذا دخل قلبًا طهره من الجشع والحقد والبغض وكل رذيلة تتصل بالمخلوق. وإن الحب قوة نشيطة مسيِّرة إلى الخير والصلاح؛ إنّ الحب إذا دخل قلبًا قسمه مشاعًا للناس أجمعين، وعوض عن كلّ جزء موهوب أجزاء مضاعفة. الحياة بلا حب عذاب دائم، ونار محرقة، ومصائب متواليات. والحياة بالحب نعيم دائم، وسعادة مقيمة، وبهجة عامة، ومتعة لا نفاد لها.

لقد كنت أعتقد أني مقبلة على عمل يحتاج إلى براعة وحسن حيلة، حين أخذت على عاتقي أن أعالج طبائع أترابي، وكنت أقدر لكل دواء، فما إن أوينا إلى مضاجعنا في مساء ذلك اليوم الذي اجتمعنا فيه وتبادلنا المحبة

والإخاء، حتى أوت تلك السجايا إلى مقرها الأخير. ومنذ الصباح الذي أشرق علينا بعد ذلك الاجتماع، ونحن نمتع بأهنأ حياة، وكأن الله أعاد خلقنا من جديد، أو أعاد علينا قلوبنا بعد أن طهرها كلّ مطهر، فلا حسد ولا حقد، ولا خداع ولا كذب ولا رياء؛ أي قوة في الوجود تستطيع أن تطهر النفوس من مطامعها، وتغسلها من أوهامها، وتؤلف بينها إيلافًا لايناله ثلم ولا صدع؟

وإن أعجب لشيء فعجبي لهذه المخلوقات التي لا تتوسل بالحب لتتغلب على ما ينشأ بينها من خلاف ونزاع وخصومات؛ فما من مشكلة تستطيع أن تثبت أمام الحب، بل لايمكن أن توجد مشكلة في عالم الحب. فالحب والخلاف لا يجتمعان في صعيد واحد؛ لقد اختبرت هذه الحقيقة بنفسي، فبعد أن كان بيتنا معرضًا للدمار والفناء بسبب تنازع الأهواء وتنافر الآراء، وتشعب المطامع، وتضارب الطبائع، أخذ يقوم على أثبت أساس وأمتن قاعدة، هو الحب. ليس في الوجود ما يدعو إلى الاختلاف وليس فيه ما يدعو إلى الطمع والجشع، وليس فيه ما يدعو إلى الظلم والطغيان. أليس الحَبُّ وفيرًا تنبته الأرض، وتذروه الرياح حيث نعلم ولا نعلم؟ أليس الماء من رحمة الله يرسله إلى الناس أجمعين بلامحاباة ولا تفرقة؟ أليس الهواء ملء السماء يناله من يريد؟ فعلام إذن الخلاف والطمع والاستبداد؟ ثم أليس للمعدة حد لن تتعداه؟ أليس للجسم طاقة محدودة لا سبيل إلى توسيعها؟ فعلام إذن الجشع والاحتراب والتنافس؟ لقد كنا فيما سبق إن لمحنا حبة سمينة أو قطعة من حلواء أو هنة من خضرة رطبة، تثور في نفوسنا ثائرة الطمع والأثرة، وتهجم كلّ منا على تلك الطعمة لتستأثر بها دون صديقاتها.

أجل كنا نختلف في نظرنا للطعام؛ فمنا من تعدو بسرعة الريح، ومنا من تتئد في سيرها، ومنا من تضرب بالمناكب، ومنا من تترفق، ومنا من تتمنى أن يسقط الطعام بين يديها. وكل ذلك بدافع المطمع والأثرة.

ولو كنا نترك كلّ واحدة تظفر بما تريد من طعام أو شراب لبلغت الكفاية وبرئت من الطمع والمزاحمة. ونحن جميعًا نعلم أن الرزق موفور لجميع المخلوقات، وأن الموت جوعًا من أندر ما يقع في الوجود. ومع ذلك نتهافت على السلب والنهب وتخليص اللقمة من فم الغير. كنا نعيش مدفوعات بشهواتنا الجسمية، وأطماعنا المادية، وما حكَّمنا العقل والقلب في جميع هذه الحالات. نعم قد يعجز الضعيف عن الوصول إلى ما يريد، وقد يقعد المرض المخلوق عن تحصيل قوته، وقد يشغل المعيل بعياله عن توفير أسباب الرزق لهم؛ فهذه حالات لو حكَّمنا فيها العقل والقلب ما كان يجب أن توجد. فكل مخلوق معرض للكبر والمرض والمشغلة، ولو كنا نحب لغيرنا ما نحبه لأنفسنا ونحب لأنفسنا ما نحبه لغيرنا لساعدنا الضعيف حتى يقوى، والمريض حتى يبرأ، والمعيل حتى يتفرغ لنفسه.

ولكن الخلق محرومون من عقولهم وقلوبهم، وكأنهم لا يعيشون إلا بمعدتهم وأجسامهم، وعندما يعرض لهم ما يغذي أجسامهم يضيعون عقولهم وقلوبهم، ونحن اليوم قد برئنا من هذا جميعه بعد أن أخذنا نحيى حياة جديدة، قائمة على الحب الخالص، وبعد أن رأينا في وفاة زوجنا مصير ذلك الجسم الذي نبالغ في الاحتفال به، وما هو إلا حفنة من تراب. نحن اليوم نسير جميعًا جنبًا إلى جنب، فإن رأينا حبة سمينة دفعت كلّ منا صاحبتها إليها دفعًا، وما تتناولها إحدانا إلا على استحياء؛ فحمدًا للحُبِّ على ما صنع وحمدًا لله على ما أنعم.

(15)

مضى على تِرْبي الرشيدة أيام وهي ملتزمة المحضن مترخمة على بيضها، وكم نحاول أن نغريها بالخروج معنا فلا تفعل؛ لقد كانت في الأيام الأولى تتناول الحب الذي ننقله إليها، أما اليوم فقد امتنعت عن تناوله.

ليس من الحق أن أعذلها ولكني أشعر أنها انحرفت عن مألوف عادتها؛ فهي في غالب الوقت صامته لا تكاد تنبس بكلمة، وهي في حالة اضطراب؛ يثيرها ويهيّجها أتفه الأمور، فإذا ألححنا عليها بالطعام نفرت عنا وعبست، وإن دنونا منها نستفسر عن حالها تبرمت وتكدرت، وإن مس جسمها شيء هاجت وماجت.

دنوت منها أمس وقد ضمر جسمها، وغارت عيناها، واصفرّت وجنتاها، أتوسل إليها أن تشفق على نفسها؛ قلت لها: يا حبيبتي ليس ما يوجب بقاءك في المأوى محرومة من الطعام والشراب؛ لست ألتمس منك مشاركتنا في التنزه والرياضة، ولكني ألح عليك أن تتناولي الطعام والشراب في أوقاتهما؛ إنك ياحبيبتي تجهدين جسمك جهدًا يؤذيك. فقالت لي: أيتها العزيزة لا تقسي علي باللوم؛ فلو كُنتِ مكاني لفعلتِ ما أفعل، وأشاحت بوجهها. فانتقلت من مكاني إلى حيث أرى وجهها وقلت لها وأنا أحدق إلى عينيها الغائرتين: يا حبيبتي، وقد يكون ما تقولين وقد لا يكون؛ فلست أجادلك، ولكني أدعوك بل أرجوك أن تترفقي بنفسك، تعالي معي لنتناول الغداء معًا؛ تعالي وكلي مرة واحدة في اليوم. فرفعت إليّ عينيها الذابلتين وقالت: أخشى أن يضجرني إلحاحك فأتفوه بما يكدرك ويكدرني؛ افهمي ما أقول: لستُ أملك حريّة العمل. فقلت: يا أختي الحبيبة، أنت مثال

العقل والكمال، وقد كنا نستمد منك الحكمة والرشاد والنصح وما تبرمت بنا؛ فما الذي غيّرك الآن؟ قالت: أو ما ترين ما أنا عليه؟ قلت: بلى، قالت: أتحتاجين إلى شرح؟ قُلْتُ: إن ما أراه لا يبرّر إمساكك عن الطعام، وانصرافك عن نفسك كلّ هذا الانصراف. قالت: أنت ترين ظاهر حالي ولا ترين باطنه. قلت باسمة: أَو ترين أنت باطن حالك؟ قالت: يا أختي؛ إني لا أرى باطن حالي ولكني أشعر بأن قواي جميعها منصرفة عن نفسي انصرافًا لا خيرة لي فيه. قلت: أو ما تشعرين بحاجة إلى مايحفظ عليك نفسك من طعام أو شراب؟ قالت: إني لا أشعر بنفسي هذه حتى أشعر بما تطلبه من غذاء، قلت: عجبًا، أما تشعرين بالحياة تدب في جسمك؟ قالت: انظري يا أختي، ورفعت كتفيها عما تحتها، فنظرت وقلت: هم الأجنة أليس كذلك؟ إني ما أري جديدًا. قالت: ادني قليلًا، فدنوت، فقالت: ألقى بسمعك برفق.

فالقيت بسمعي، وإذا حركة خفيفة تدبّ في داخل الأجنّة. قلت: أختي ما الذي أسمع؟ قالت: روحي تخفق في الداخل. قلت: ياالله! روحك! أو تنتقل الروح من مكان إلى آخر؟ فابتسمت وقالت: هو ما تسمعين، وسترين بعينيك عما قريب مصداق ما تسمعين. قلت: عجّلي القول وأزيلي الفزع من نفسي. قالت: لا تفزعي يا حبيبتي، إن الله الذي أودع فينا سرّ الحياة هو الذي ينقل هذا السر إلى هذه الأجنة، وهو الذي يبعثها حيةً تدب على الأرض كما ندب! قلت: أوَما يخيفك انتقال روحك إلى غيرك؟ قالت: يخيفني؟ إنه يبعث فيَّ شعورًا لا أستطيع أن أصفه لك مهما أوتيت من بيان؛ إني أشعر أني أسعد مخلوقة على وجه الأرض، إن حبي للحياة أفرغ في هذه الأجنة، ولكنه سيعود إليّ مضاعفًا حين أرى هذه الأجنة

تدب حولي. قلت: أتريدين أن تقولي إن هذه الأجنة قطعة من نفسك؟ قالت: أقصد أن أقول إنها أرواح منتزعة من روحي؛ فأنا الآن أشهد انتقال روحي إلى جيل قادم، بل إلى أجيال متعاقبة على مر السنين.. فأسرعت إلى يدها وأكببت عليها أغسلها بدموع الفرح، اشتراكًا معها ببهجتها، فانحنت ورفعت رأسي وقالت: يا أختي؛ أشكر لك مشاركتك إياي في فرحي. فقلت لها: أيتها الحبيبة الشكر لك فأنت التي حلّت بك نعمة الله، وأنت التي ستدخلين الفرح إلى قلوبنا وتعوّضين علينا مافات.. فقالت: يا أختي، ماسيأتي لايعوِّض مافات، وما كان للمستقبل أن يعوّض الماضي.

وفيما نحن في الحديث إذا بها تنتفض فجأة وتقف كالحيوان المفترس حين يلمح فريسته؛ فزعت لمنظرها وصحت: أختي مالك؟ فقالت: انظري وراءك، فنظرت وإذا وجه غريب يلوح من بعيد، فقلت: يظهر أنه مخلوق ضعيف لا خطر له. قالت: ومايريد؟ وانطلقت كالسهم نحو ذلك الوجه، وريشها يضطرب اضطرابًا شديدًا. فلحقت بها، وما كاد ذلك الوجه يراها حتى توارى عن الأنظار. فهدّأت روعها ورجوتها أن تعود إلى مأواها، فقالت: لا أطيق أن أرى غريبًا في هذه الديار.

فقلت: نحن نفديك بأرواحنا. قالت: إنك لا تستطيعين أن تدفعي الشر، بل لا يستطيع كلّ من في البيت أن يدفعه، ولكني أنا وحدي أستطيع أن أردَّ العادي مهما اشتد بأسه، فإن الله يمدني بقوة تستطيع أن تقف في وجه كلّ عدو، وإن كان بقوة النمر، قلت: ولكنك ضعيفة نحيلة، قالت: أخطأت؛ إني أقاوم مقاومة من يستمد القوة من الله، وقوة الله لا تُقهر. ولم تعد إلى مأواها حتى تيقنت أنها وأجنتها في مأمن من كلّ شر، فتعجبت لذلك الجسم النحيل الضئيل كيف دبّت فيه قوة ثور شرس في

لحظة واحدة! وأردت أن أتيقن من ذلك الوجه الغريب، فخرجت أبحث عنه وراء الجدار بعد أن تركت صديقتي رابضة في مأواها تسهر على أجنتها بعينين كالجمرتين.

(16)

ولم ألبث طويلًا في البحث حتى اهتديت إلى ذلك الوجه الغريب، ولشدّ مادهشت حين رأيت مخلوقًا مثلنا، نحيل الجسم، منهوك القوى، زائغ البصر، ترتعد فرائصه ارتعادًا شديدًا. انحنيت عليه برفق وقلت: من هذا؟ فقال بصوت متقطع: طارئ غريب بائس، فحملقت في وجهه وإذا هو أنثى مثلنا فأخذت بيدها، وسرت بها إلى الساحة. وما أبصرنا الأتراب حتى هرعن إلينا وقلن: ما الخبر؟ فقلت، طارئ مسكين التجأ إلى مأوانا، فلنبادر إلى إسعافه؛ فذهبت ترب تحضر الماء، وأخرى تحضر الحبّ، وجلست أنا بجانبها، أطيّب نفسها، وأشد عزيمتها، وبعد وقت قصير استعادت قواها واستطاعت أن تنبئنا عن حقيقة حالها. فقلت لها: أيتها الأخت العزيزة، ما الذي دفعك إلى هذا المأوى؟ فقالت: كنت جائعة عطشَى، خائرة القوى فخرجت ألتمس ما يسد الرمق، فجرّني القدر السعيد إلى مأواكن، وماكدت أراكن من وراء الجدار، وألتمس منكن المعونة حتى رأيت في عيني إحداكن شرًا أرعبني فتسترت وراء الجدار، وما أطقت الكلام. قلت: أليس لك مأوى أيتها الأخت؟ قالت: لي. قلت: ألست تجدين فيه الطعام والشراب؟ قالت: في غير مأوانا؛ نحن أسرة كبيرة، كثيرة العيال رقيقة الحال، نبحث عن الطعام فلا نكاد نصل إلى ما يسد الرمق، ونحن

فوق هذا في قتال دائم، لا تكاد إحدانا تقع على حبة سمينة أو هنة رطبة حتى تهجم عليها سائر الأسرة، فإن كانت قوية نشيطة شرسة فازت بنصيبها بعد عراك وفزع، وإن كانت ضعيفة مسترخية انتزع نصيبها من فمها، وطار إلى فم آخر. قلت: أهذا دأبكن حياتَكنَّ كلها؟ قالت: نعم؛ إني ما أعرف طعم النعمة حتى أصفها لك، وإنما ذقت ألوان الحرمان والشقاء والفاقة، وأستطيع أن أحدثك عنها أيامًا طوالًا. فقالت إحدى أترابي: أليس عندكم زوج يعينكن على الرزق، ويحميكن من المكروه؟ فأجابت: عندنا زوج، ولكن زير نساء، نهم أكول، زوجاته كثيرات، وعياله عديدون كثيرون، وليس في وسعه أن يدفع عنا ضيمًا أو ييسر لنا رزقًا؛ وماذا يفعل الذكر في الأسرة الكبيرة التي تعد عشرين نفسًا؟ وقد عشت على هذا الحال منذ وعيت، وما أعرف كيف كانت تعيش الأسرة من قبل، ولكني أرجح أنها عاشت في الماضي كما تعيش الآن، ولو كان الفقر طارئًا لوجد من يعالجه أو يدفعه بسبيل من السبل، ولكن الأسرة ألفت الضيق ورئمت المذلة، وتعودّت الشقاء. قالت ترب أخرى: ولم لا تدعين أترابك إلى معالجة تلك الحالة، وليس يعدم الساعي بابًا من أبواب الفرج؟ فقالت: إنهن مشغولات بالحسد والنفاق والكذب والخداع، ومايسلم يوم من شر يبيّت، أو مكيدة تنصب. فقالت ترب ثالثة: أليس بينكن عاقلة رشيدة حازمة، تسعى إلى إصلاح الحال، وقطع دابر الشر؟ فقالت: لو وجدت العاقلة لاستضعفت واستذلّت واستهدفت لضروب العذاب. قلت أيتها الأخت: صوت واحد يرتفع في سبيل الإصلاح والخير، يحدث أثرًا عميقًا في النفوس، وهو وإن لم ينتج تغييرًا عاجلًا فلا شك أنه ينتج تغييرًا آجلًا. قالت: أنت يا أختي تطلبين من يضحي بنفسه في سبيل غيره، وقد عزَّ بيننا من يضحّى.

قلت: أولست مؤمنة؟ قالت بلى. قلت: كوني أنت المضحية، قالت: لو كان لي أقل رجاء في الظفر لكنت من تريدين، ولكن الشر في بيتنا بلغ حدًا من الطغيان والعنف بحيث لن ينفع معه نصح ولا إرشاد.

قلت: يجب أن يكون مع التضحية أمل وإيمان، وإلّا فمصيرها الإخفاق. قالت: وما دواء الجائع البائس؟ إن فراغ المعدة في نفسه شر لا يُقهر، ولو تيسَّر للأسرة ما يسد الرمق لصحَّ أن تنصح فتستنصح، وأن ترشد فتسترشد. قالت إحدى الأتراب: الحق ما تقولين؛ فيجب أولًا أن تشفى الأسرة من تباريح الجوع قبل أن تعالج نفوسها، فقالت: وما السبيل إلى ذلك؟ قالت الترب: السبيل إلى ذلك واضح؛ انطلقن من المأوى، واضربن في الأرض. فقالت: ومن أين الخروج؟ إن حول مأوانا جدارًا لا يجتازه إلّا المستميت. قلت أو أنتن محجوزات محجوبات عن المخلوقات؟ قالت: إننا في سجن فيه قسوة المادة التي لا ترحم ولا تلين. قلت: إذن اجتمع عليكن السجن والفقر. قالت: والفساد والبغي. قلت: ولا يعيش هذان إلا بوجود ذينك، وما رأيك فيمن يحمل إليكن الطعام؟ قالت: ومن يبيع نفسه رخيصة؟ قلت: أو يهلك المحسن عندكن؟ قالت: ما عرفنا المحسن حتى نميزه من المسيء. قلت: ولكن فيك غير ذلك، وإن كان أترابك مثلك فلن يسئن إلى المحسن، ومع ذلك فنحن سنقذف إليهن الطعام من وراء الجدار، ولسنا نبغي منهن جميلًا. قالت: لك الخيار فيما تفعلين، على شريطة أولًا: أن أُعفى من مرافقتك، وثانيًا: أن أجنب اللوم بعد أن أنذرت. فقالت إحدى الأتراب: لنقنع بخلاص نفس بائسة، ونحن بعد في شغل شاغل. فقلت: أعدكن أن أؤدي واجبي على أحسن وجه. فقالت إحدى الأتراب: وأنا معك وعلى بركة الله.

(17)

لم أوفق بعد تخليص ذات الوجه الغريب إلى تنفيذ ما عزمت عليه، بسبب اشتغالي بتربي ذات الأجنة؛ فقد عرفت السبيل إلى إرضائها، وظفرت بثقتها. قد أظهرت في بدء الأمر ذعرًا من ذات الوجه الغريب وما فتئت أعالجه إلى أن رضيت عنها، واطمأنت إليها. وما أعرف أن عينيَّ أحستا النوم لفرط تفكيري بتلك الأسرة البائسة؛ وكيف لعيني مخلوق أن تغمض، وفي الوجود أسرة تعاني البؤس والشقاء، وتبلو الفساد والشر؟ إن قلبي ليتصدع حين أفكر بأن فريقًا من الخلق يتضوّر جوعًا، وفي وسعي أن أساعده؛ إن سعادتي نقصت بمقدار ما سمعت من شقاء تلك الأسرة، وكنت أحسبها كملت بعدما وقع في أسرتنا من الحب والائتلاف، وبعدما منَّيت به نفسي من مستقبل سعيد بخروج الأجنة إلينا. وكم حاولت أن أدفع الأرق من عينيّ بانتحال المعاذير، وضرب الفروض، وكم قلت لنفسي: هبك لم تسمعي ما سمعت، وهبك لم تصدقي ما قيل لك، وهبك ما رأيت ذلك الوجه الغريب. ولكنني سرعان ما تظهر لي الحيلة، وأتبين أني أخدع نفسي، فيعود إليّ الأرق والحزن. وماوجدت مخرجًا سوى أن أحزم أمري، وأنفّذ خطتي، فجئت إلى إحدى أترابي في الصباح، وقلت لها: هيا أيتها العزيزة، فلنحمل ما نقدر عليه من طعام ولنذهب مسرعتين لإسعاف تلك الأسرة، فقالت: لبيك. واسترشدنا بضيفتنا، وذهبنا مثقلتين بالطعام، وسرنا مجدّات، وكانت هذه أول مرّة أخرج فيها من المأوى باختياري لأؤدّي واجبًا. سرنا نقطع المسافات البعيدة متجنبتين المخاطر التي كانت تطل علينا من حين لآخر، مهددةً بالهلاك؛ فرأينا في طريقنا عمالقة جبارين، يسيرون متكبّرين مختالين، وكأن الدنيا تسير وفق

رغبتهم، وطوع إرادتهم، وما كنا ننال منهم إلّا الشزرات الممزوجة بالكره والازدراء، كأن الذي خلقهم غير الذي خلقنا! ولو كان في وسع أحدهم أن يبطش بنا ما تأخر؛ فقد كنا أحرص من أن نقترب منهم، وأحذر من أن نأمن لهم، ومن أين لهؤلاء العمالقة أن يشعروا بمهمتنا؟ ومن أين لهم أن يشعروا معنا؟ أليس العمالقة قساة طغاة لا يُسألون عما يفعلون؟ ألسنا نحن المخلوقات ضعيفات لا يؤبه لنا، ولا يسأل عن حالنا، ولا يُقام لنا وزن في الوجود؟ أليس في العملاق قدرة على البطش دون شفقة ولا رحمة؟ أليس فيه جبروت الطاغي المستبد.

ومع ذلك فقد بلغنا مأوى تلك الأسرة آمنات، وكان الله أعدل من أن يحول بيننا وبين ما نريد. وما إن أشرفنا على المأوى حتى تخلفت ضيفتنا، وتسترت وراء شجرة، وأشارت بيدها أن هناك ما تريدان. فسرنا حثيثًا، ونظرنا من وراء الجدار فإذا أمة من المخلوقات، يكسوها البؤس، ويهزلها الجوع، ويُزري بها الشقاء. دنونا من المأوى وسلمنا، فما رأينا إلا عيونًا مفتحة، تحتها أجسام ضامرة وسيقان نحيلة، كأغصان الشجرة اليابسة في فصل الخريف. أعدنا التحية فاستدارت حدقات في تلك العيون أدخلت الرعب في قلبينا، وكادت تِرْبي أن تبتعد، فأخذت بيدها، وقلت لها: لا تحجمي ولا تفزعي، وبادرت بقذف ما حملت من طعام إلى الأسرة من أعلى الجدار، ثم أخذت حمل تِرْبي وقذفت به أيضًا، فتزاحمت مخلوقات كئيبات شرسات تتخاطف الحب في ذعر ونفار؛ فمنهن من تلتقف الطعام وتفر به إلى آخر الساحة. ومنهن من تلحق بالحاملة وتعمَى عن أن ترى ما أمامها، ومنهن من تأكل بشره، ومنهن من تنتزع الطعام من غيرها ولا تكلف نفسها مؤونة الأخذ بالفم، ومنهن من تجفل حينًا ثم تهجم

بلا إجفال. وقفنا نشاهد ذلك المنظر ونشوة الإحسان تسري في أجسامنا وتملؤنا سرورًا.

أما الزوج فكان يظهر مهدود القوى زائغ البصر مضطربًا ينتقل من مكان إلى آخر في غير وعي؛ تارة يتناول الطعام وتارة يهرع إلى زوجاته يشاركهن في طعامهن وتارة يحدّق إلينا دهشًا، وتارة يقفز إلى باب المأوى. وبعد أن فرغنا من قذف جميع ما وسعنا حمله، رفعت صوتي أدعو الزوجات إلى الدنو مني، فصاح بزوجاته: الزمن مكانكن، وإياكن والتقدم، فقلت له أيها العزيز! لِمَ الذعر؟ لسنا أعداء وإنما نحن آتيتان لنقدم إليكم الطعام. فقال: ولِمَ ومن أرسلكما؟ فقلت: جئنا من أنفسنا. فقال: وكيف؟ فقلت: كنا نمر بمأواكم فرأينا ما أنتم فيه من فاقة فأردنا أن نساعدكم. فقال: ولم؟ قلت: أيجب أن يُسأل المحسن عن إحسانه؟ قال: ومتى أحسن المحسن عن غير قصد؟ قلت هاك الدليل! وأشرت بيدي إلى الحبّ، فضحك مقهقهًا وقال: نِعْمَ الدليل؛ تفضلا إن كنتما صادقتين.. ولكن ألستما مخلوقتين من طينتنا؟! قلت: بلى. قال: ما ألفنا من المخلوقات إلا الشر والبغي، وأنا أتحداكما أن تثبتا صدق دعواكما بأن تدخلا إلينا، فقلت: أيها العزيز، شططت في طلبك، وأسرفت في سوء ظنك؛ فنحن نثبت لك حسن نيتنا بالانصراف عنك لا بالدخول إليك، فرفع صوته في ضحكة مدوية وقال: منطق جميل. ونظرت إلى زوجاته فإذا هن متراصات كالموج؛ بعضه يقبل وبعضه يدبر، فعلمت أن حديثي طمأن بعضهن وأفزع البعض الآخر، وأن بينهن من تود لو تستطيع أن تدنو مني، وبينهن من تود لو تستطيع أن تبلعها الأرض فزعًا، فقنعت بأن عملي صاد بعض القلوب، وأدخل فيها الثقة بالإحسان والفضيلة، وقلت

في نفسي: لابد من أن تنمو تلك الثقة فتشمل الفريق الآخر. ولابد من أن تنبت الفضيلة في هذه الأسرة فاضلةً تدعو إلى الإصلاح والمحبة، وتُزيل البؤس والشقاء، ولابد من أن تجد من يؤازرها يشد عضدها، لأن الجانب الذي شعرت بأنه مال نحوي كان كبيرًا.

ولما هممت بالعودة قلت لهن: وداعًا أيتها الحبيبات، وكان الله في عونكن. فقال الزوج بصوت أجش: إلى أين يذهب هذا الوجه المليح؟ فنظرت إليه مستحيية وقلت: إلى حيث يدعو الواجب، فقال ليتَ الواجب هنا! فرفعت عيني وإذا ابتسامات خفيفة تعلو ثغورًا، ونظرات طائرات تعلو رؤوسًا، فزاد حيائي وعدت مسرعة إلى المأوى مع صديقتي، وأنا موزعة بين العجب لما رأيت مما لا يصدّق من بؤس وفاقة وسوء حال، وبين الابتهاج لتأدية الواجب الجميل دون مشقة.

(18)

استيقظنا في صباح هذا اليوم مبكرات على أصوات الصغار تنبعث في رفق وعذوبة من حضن تربنا العزيزة، وما كادت الشمس تملأ الساحة نورًا ودفئًا، حتى خرج معها إلى الوجود خمسة عشر مولودًا يستقبلون الحياة بأصوات مملؤة بالبشر والابتهاج.

وما كدت أسمع تلك الأصوات حتى غمرني سرور لا حد له؛ وهل في الحياة أروع من رؤية الأطفال يدبون على الأرض دبًا رفيقًا، وكلهم طهر وسذاجة وحنان؟ إن هذه الكتل اللينة من المخلوقات تثير في النفس أعمق المسرّات، وتبعث في الجوانح مالا يوصف من مباهج وأفراح؛ إن الخليقة تتراءى لنا

عجوزًا شمطاء قاسية القلب، كالحة الوجه، مشؤومة الطلعة، فإذا ما رأينا فيها هذه المخلوقات الصغيرة انقلب وجه العجوز الشمطاء إلى وجه شابة غانية، ممشوقة القوام، ميمونة الطلعة، مؤنسة العشرة. ولا غرو في ذلك؛ فالخليقة كأمها الطبيعة تمرّ في فصول متعاقبة، وكما أن فصلَ الطبيعة الزاهر هو الربيع النّضر الباسم، ففصل الخليقة اليافع هو هؤلاء الأطفال يظهرون إلى عالم الوجود، وكما أن الطبيعة تجدد نشاطها وتزكي قوتها في فصل الربيع، فكذلك الخليقة يشتد ساعدها، ويغزر دمها في أوقات الخصب الإلهي، الذي يظهر في فصل الولادة؛ ومَنْ مِن أبناء الطبيعة لا يسأم إن سحب الصيف ذيله على أخيه الخريف، ولم يودّع الحياة في نهاية أجله؟ فكلّ فصل له أجل لا يتمنى أحد من المخلوقات أن يراه منسحبًا على حساب غيره، ولكنَّ هناك فصلًا واحدًا تتمنى المخلوقات جميعًا أن يروه ممدودَ الأجل، وهو فصل الربيع، وهذا موقف المخلوقاتِ جميعًا من فصل الولادة؛ فإنهم ليشعرون أنه فصل البركة والإنتاج والخير العميم، ويودون لو أنه يعمّر مدى الحياة.

وماذا أقول في تِرْبي العزيزة، التي منحها الله أعظم البركات، ولئن كنت أنا الغريبة عنها شعرت بأن حياتي أخذت تتجدّد برؤية تلك المخلوقات؛ فماذا عسى أن يكون شعور الأم؟

كنت أول من هنأها وبارك لها، فرأيت في عينيها نورًا إلهيًا لايعرفه إلا العابد المتبتّل الذي يهب حياته إلى الله ويصونها من الخبائث والآثام، قلت لها أيتها الحبيبة! ها قد عوّضك الله عن تضحيتك أعظم العوض، وها أنا أرى بعينيّ مغزى ما كنت تشيرين إليه حينما كنت ألومك على إمساكك عن الطعام والشراب، فقالت لي: يا أختي العزيزة! إني أحسُّ

أني خلقت من جديد، ولو كنت أستطيع أن أدخلك في قلبي لرأيتِ ما لا تصدقه عيناك. إن روحي تضاعفت بقدر ما ترين من أولادي، فأنا الآن نفس بخمس عشرة نفسًا، وروح بخمس عشرة روحًا، فتصوري مخلوقًا له جسم واحد وخمس عشرة نفسًا، قلت: يا له من شعور جميل مبارك؛ أو ما تشعرين يا أختي بتضخم جسمك أيضًا؟! فقالت وهي تبتسم: إنك تريدينَ عليَّ أن أعوض ما فاتني من الغذاء! قلت: ليتني أستطيع أن أحملك على تغذية جسمك هذا ليقوى على حمل تلك الأرواح الخمس عشرة التي خلقت فيه، فقالت: أيتها الأخت لا تعجلي! وأرجو أن يأتي اليوم الذي تختبرين فيه ما أختبر فسترين حينئذ أن الجسم لا يتغذى بالمادة وحدها وإنما تغذيه عناصر أبعد ما تكون عن المادة، قلت: ولكنني أعجب كيف تَقْوينَ على حمل نفسك، ولم يدخل جوفك طعام منذ مدة طويلة. ولو أمسك أحدنا عن الطعم بضعة أيام لهلك لا محالة، فقالت: هو ما تقولين، وسره أن الذي يتفرغ للحياة المادية يحسب أن المادة قوام حياته فلا يستطيع أن يصبر دونها زمنًا طويلًا، وأما من انصرف عن المادة وتفرغ إلى ما هو أسمى وأعز فإنه يستطيع أن يمسك عنها مدة طويلة جدًا. وهذا أمر مردّه التجربة لا العقل؛ قلت: أختي، لله ما أجمل بيانك! والرياضة؟ قالت: أخرج لأجل الأعزاء، فأعَنْتُها على الانتقال من المأوى، والأولاد يتدافعون من حولها، وهم على أشد ما يكون من المرح والنشاط، وقد كنت معهم كأحدهم، وإن كنت أكبر منهم سناً. الحق أن روحي كانت من سن أرواحهم، أو أن قلبي كان من سن قلوبهم؛ لعلّ هذا يعلّل سرّ شعوري باندماج روحي بأرواحهم اندماجاً تاماً، نعم؛ إني لست لهم أُمّاً حتى أستأثر بشعور الأم الذي تنفرد به دون سائر الخلق، ولكن الله يعلم أني أتحد معهم في

الروح اتحاداً ما شعرت به في حياتي مع أرواح أخرى.

وما إن خرجنا من المأوى هرعت الأتراب مهنئات، فتقبلت الترب العزيزة تهانيهنَّ بالشكر، ولكن الصغار ما ألفوا الأتراب، وما برحوا يخرجون من تحت كنفي أمهم ويعودون إليهما من حين لآخر، متراكضين، متدافعين كأن في الجو ما يذعرهم، ولكن فرح الأتراب كان عظيماً بهم، وكانت تهانيهن معبرة عن فرحهن أوضح تعبير.

ما أظن أن ترْبَنَا العزيزة تناولت حبة واحدة طول النهار على كثرة ما ضربت في الأرض وتناولت بفمها الحب؛ فقد كانت مشغولة في البحث عن أطيب الغذاء وأرطب الهنات كي يستسيغ أولادها ما يأكلون هنيئاً مريئاً؛ ما إن كانت الحبة تصل إلى فم الأم يهرع الصغار يطلبونها مدلين بأنفسهم، وكانت الحبة تسقط في فم أحدهم بعد كثير من الرياضة واللعب.

أظن أنني كدرت تِرْبي العزيزة بإلحاحي عليها بأن أعينها على إطعام أولادها؛ فقد رفضت معونتي محتجة بأن الصغار في أشد الحاجة إلى الرياضة التي تثيرها الحبة الرقيقة أو الهنة الرطبة، ولابدّ لهم من حركة ولعب لتقوَى أجسامهم، وتشتد سواعدهم. وقد أظهر سائر الأتراب ما أظهرت من استعداد للمساعدة، ولكنها امتنعت شاكرة في أول الأمر متضجرة في آخره، وما أدري؛ لعلّ لها عذراً فيما تفعل، وقد تعجلت لومها يوم كانت تحتضن الأجنة فأخطأت ولا أريد أن أخطئ الآن مرة أخرى.

الحق أني لا أستطيع أن أكتم شعوراً ملأ جوانحي اليوم؛ فقد تمنيت لأول مرة في حياتي أن أكون كمخلوق غيري؛ إني ما حسدت مخلوقاً على نعمة،

وما نافست أحداً في خيراته، ولكنني أعترف اليوم أني تمنيت أن أكون أمّاً؛ فياله من شعور ويا لها من نعمة!

(19)

كانت الأجنة- في أول خروجها- متشابهة تشابه أغلفتها، بل لكأنها الأغلفة بعينها ضُمَّتْ إليها رؤوس وسيقان، ونفخت فيها أرواح، فراحت تدب على الأرض، وياليتها ظلَّت على حالها ذاك؛ فالتشابه بين المخلوقات ينبئ عن الوحدة والمساواة، ومتى اتحدت المخلوقات وتساوت ولو في ظاهرها زال سبب من أسباب التنافر، ومن يدري؛ فلعلّ التفريق بين المخلوقات لم يوح به إلّا التنافر في أشكالها وألوانها، فحسب ذي اللون الأبيض أن لون الفضة استعير من لونه، وحسب ذي اللون الأسود أن لون الإثمد سرق من لونه، وحسب ذي اللون الأخضر أن لون المروج تقليد للونه، ففرح كلّ بما لديه. ومن يدري أيضاً؛ فلعلّ كلّ ذي لون حسب أنه مميز في باطنه كما هو مميز في ظاهره، فطغى واستكبر، وقام الخلاف بين المخلوقات على أوهى قاعدة، وأسخف دعوى.

إني ما تمنيت أن يثبت لهؤلاء الأعزاء شكلهم ولونهم الأولان إلّا إشفاقاً عليهم من مثل هذه الأوهام والأباطيل.

ولكن ما فائدة التمني أمام الأمر الواقع؛ فالاختلاف في الألوان أخذ يتضح ويستبين يوماً بعد يوم، على أني لن ألقيَ السلاح، وسأعرف كيف أعالج هذه الفروق الزائفة، وكيف أطبع هؤلاء الأعزاء بطابع ينسيهم ألوانهم مدى الحياة.

لازمت الأعزاء من أول نشأتهم، وشعرت أني لا أطيق مفارقتهم، وما أدري بماذا شعرت تِرْبي العزيزة نحوي وبماذا فكرت بي؛ أتراها توهمت أني مفطورة على التطفل والأثرة؟ أم تراها أدركت حقيقة حبي لأولادها، وأني مدفوعة بعاطفة جارفة لا قدرة لي على كبحها؟ يحملني على هذا التفكير ما كنت ألحظه في عينيها من تذمر أو عدم رضى حينما تراني أبالغ في مداعبة أولادها دون سائر الأتراب، على أن ذلك لم يحملني على تغيير موقفي قط اعتماداً على ما بيني وبينها من تفهم وتحاب سابقين، فهي تعلم مبلغ ثقتي بفهمها ورجاحة عقلها، وما أنسى مواقفها السابقة عند عقد الحلف المعهود وبعد وفاة زوجنا الصالح. ومن جهة أخرى كان شعور الأولاد نحوي مشجعاً على القصد والاحتياط، ولا أبالغ إن قلت إني كنت موضع سرهم وثقتهم، وأكاد أقول بكلّ اطمئنان: إني موضع حبهم الصادق. ترى أأجرح كرامة الأمومة إن قررت أنهم كانوا يلوذون بي في وقت الشدة، ويسرون إليّ آلامهم، ويلتمسون رأيي فيما يشجر بينهم من خلاف لعلّهم كانوا يخشون إغضاب أمهم، أو أنهم كانوا يجدون عاطفة الأمومة أرق من أن تقوى على تسوية الخلاف بين أبنائها. أو لعلّهم وجدوا في أمهم قسوة الأم المتشدِّدة في تربية أولادها، المبالغة في تقدير المستقبل، وما يستلزم من اعتماد على النفس وجد وكد... وأياً كان الأمر، فقد عقدت قلوبنا على المحبة والتفاهم الصادقين الخالصين.

ومضى واحد وعشرون يوماً وتِربي العزيزة تحيط أولادها بسياج من العطف والحنو والإرشاد ما رأيت له نظيراً في حياتي؛ نعم إني بلوت عطف زوجنا الصالح علينا، وما كان يحبونا به من حنو ونصح، ولكن حب تربي لأولادها لا يدانيه حب في الوجود. لقد كانت تؤثر أولادها على

نفسها، وما أنسى يوماً ألمّ بها فيه انحراف في صحتها، فتجلدت وخرجت مع أولادها كعادتها، ولكن آثار المرض والإعياء كانت بادية في مشيتها وعينيها، وكم حاولت أن أحملها على التزام المأوى ريثما تستعيد صحتها فلم أفلح، وكان جوابها لي بعد توسلاتي: يا أختي إن صحتي في صحة أولادي، وسلامتي في سلامتهم، ومع أني أثق بحبك إياهم فإني لا أقوى على تركهم، وكلّ ما استطعت أن أفعله في ذلك اليوم أن أضرب في الأرض مرشدة إلى مواطن الغذاء الرطب اللين.

والواقع أني كنت أعجب كيف تعيش تِرْبي العزيزة، وكيف تقوى على التماسك بعد مرحلتي الولادة والحضانة، ويزداد عجبي حين أراها نشيطة قوية، بل في أشد ما يكون من القوة والنشاط؛ لقد كانت تلمح ظل الكلب من مسافة تدق عن نظر ذي البصر الحديد، وكان دنوّ الظل من المأوى ينفخ فيها قوة النمر، ومن كان يستطيع أن يهزمها أو يدخل الرعب في قلبها؛ أشهد لو أنها رأت جملاً مقبلاً صوب أولادها لوقفت في وجهه.

قلت لها يوماً – وقد تملكني العجب من اعتدادها بقوتها– علام تظهرين هذا الحول، وأنت أنثى ضعيفة لا سند لها؟ فبرقت عيناها وقالت: أنثى ضعيفة! ومن يقول ذلك؟ خذي! وضربت بمنقارها رجلي وكأنه والله سهم مسموم! ثم أقبلت عليّ معتذرة ووضعت ريقها على موضع النقر، فكأنها والله ما ضربت! سبحانك اللهم لقد جمعت السم والترياق في موضع واحد!

لقد كان في عينها بريق نافذ يخترق الحجب، وكان في جسمها انفعال

سريع في قوة واحدة؛ فإذا بَعُدَ واحد من أولادها وتجمع الباقون من حولها، شعرت كأن خلية من خلايا قلبها فارغة، وانتفضت مذعورة تبحث عن مكانه، فإذا ما عاد إليها، غاض الاضطراب وتملكها شعور الطمأنينة.

وفي صباح اليوم الثاني والعشرين خرجت الترب من المأوى مبكرة كعادتها، وخرجت مع سائر الزميلات، وخرج الأولاد معاً وهم يقفزون في نشاط ومرح دأبهم كلّ صباح. وأراد أحدهم أن يداعبني فقفز على ظهري، فهممت أن أطرحه خشية أن تتكدر تِرْبي، ونظرت أمامي لأتبين شعورها فإذا هي قد بلغت آخر الساحة، فعجبت كيف تعجلت سيرها اليوم خلاف عادتها، وما كدت أسير قليلاً حتى رأيت الأولاد يتراكضون في أطراف الساحة، وتِرْبي العزيزة تنقر الحب في نهم عجيب، فنظرت وأطلت النظر ولكني ما صدقت عيني؛ فهذا أحد أولادها يدنو ليتناول حبة من أمامها فتسرع وتتناولها قبله، وهذا يشرِّق وذاك يغرِّب وهي لاهية كأنها ما تعرفهم، فوقفت مذهولة؛ ترى ماذا جرى لها؟ لقد كانت بالأمس أماً بارَّة عصبية المزاج لفرط حنوها، واليوم كأنها ما عرفت الأمومة ولا أحست بها؛ ترى هل وقع بينها وبين أولادها ما يحملها على هذا التطور العجيب؟ ومتى كانت الأمومة ثوباً يلبس في يوم وينزع في يوم آخر؟ وكيف يصح أن ينتقل قلب من حال الحب المبرِّح إلى حال الكره الذميم؟ لم أتمالك أن أسرعت نحو الأولاد فرأيتهم على غير ما توقعت. رأيتهم يأكلون ويلعبون ويضحكون، كأنهم ما فقدوا أمّاً؛ أفقدوا هم أيضاً عاطفة البنوة؟! وهل البنوة ثوب يخلع أيضاً؟!

وفي لحظة مر بخاطري رأي؛ هذه فرصة سانحة لأقتنصها، لئن فقدت الأم عاطفتها وفقد الأبناء عاطفتهم لتزدادن عاطفتي قوة وثباتاً؛ لقد

وقع بيدي الآن السلاح الذي طالما تمنيته، لأحتضنَّ الأولاد ولأكونّ لهم أما ثابتة العاطفة، وصديقة مخلصة المحبة. فدنوت منهم وصحت فيهم: أيها الأعزاء، يا فلذات الكبد، ويا حبات القلب. تعالوا إليّ، ادنوا مني؛ إني سأعيش لكم طوال العمر، لقد انعقدت بيني وبينكم المودة منذ خرجتم إلى هذه الحياة، ولن أتخلف عنكم لحظة... اتخذوني لكم أماً وأباً وصديقة، وخنقتني العبرات... وما استطعت أن أتم حديثي؛ فقد كنت أريد أن أقول الكثير، ولكنهم فهموا كلّ هذا الكثير، فالتفوا حولي، ورأيت في عيونهم مثل الذي رأوا في عيني، ومنذ تلك اللحظة شعرت أننا روح واحدة حلت في أجسام متفرقة، ورأيت فيهم ما أنشد من ثقة وطاعة.

(20)

مضت أيام وتِرْبي العزيزة ممعنة في الانصراف عن أولادها، وقد رأيت في تِرْبي ذات الوجه الغريب عوناً على أداء واجبي نحو الأولاد؛ فقد دهشت هي كما دهشت، وقالت لي: ليتني أستطيع أن أصف لك وجهها وعينيها يوم رأتني وراء الجدار؛ إنها كانت تحمل جمرتين لا عينين، لقد كان بريق عينيها أشد من اللهب، ولو طالتني يدها لصرعتني، ووالله ما كنت أقدر على النظر في عينيها فكيف على مقاومتها... وهي اليوم هادئة ساكنة. فقلت لها: يا أختي لندع اللوم، فلعلّ هناك سراً غاب عنا، وكلّ سر لابد أن يفتضح، ولننصرف نحن إلى شأننا، ولقد كنت خير عون لي في هذه الأيام العصيبة، فاستمري في مؤازرتي؛ فنحن الآن في أشد الحاجة إلى رعاية

هؤلاء الأولاد، والتعويض لهم عما فقدوا، إن صحَّ للأمومة أن تعوض، ونحن ثانياً مسؤولات عن تربيتهم وثقافتهم، وقد بلوت أنت كما بلوت أنا سرَّ الأسرة الفاقدة التربية والثقافة، بل لعلّ بلاءك أبلغ وأعظم من بلائي. فقالت: يا أختي، لقد خلقك الله طباً للبؤساء، ورزقك الجلد والصبر والثقة ومضاء العزيمة، وأنا بعد صنع يديك، فمري وأنا أطوع لك من بنانك. فقلت: يا أختي إن كنت تطلبين رضاي فجنبيني أولاً سماع الثناء عليّ؛ فإني أكره أن يدخل في وهمي أني مخلوقة فوق المخلوقات. وأعينيني ثانياً على بث المثل العليا في هؤلاء الأولاد في رفق وتؤدة؛ فليس شيء أحب إلى قلبي من رؤية الفضائل تنمو والمثل العليا تزدهر، والمحبة تشيع بين المخلوقات جميعاً.

وما كدت أتم كلامي حتى صاحت بي: أختي؛ انظري هناك! وأشارت بيدها إلى أحد جوانب الساحة، فنظرت فإذا اثنان من الصغار يتصارعان بعنف وقوة كأنهما عدوان لدودان، أو ضرتان ضاريتان؛ يبعد الواحد منهما مسافة قدمين ثم يملأ صدره هواء وينفخ جلده، ويوتر أعصابه ويهجم على أخيه يضربه على أم رأسه أو فوق أنفه، فيتلقى ذاك الضربة في جلد ويسرع إلى الوراء ويتهيأ للضربة ثم ينقض على ضاربه قبل أن يستعد لتوجيه ضربته الثانية، ثم يفعل الأول ما يفعله الثاني، ويستمران في كرَّ وفرّ، وجول وصول إلى أن تنتهك قواهما وتتفجر جراحهما دماً، فيمسكا إلى رجعة.

نظرنا إليهما دهشتين، ثم أخذنا نتبادل النظرات في صمت وفزع، كأنما تستشيرني وأستشيرها فيما يجب أن نفعل، وقطع صمتنا صوت يرسل متقطعاً كأنه صوت ضربات متتابعة على طبل ضخم، فنظرنا صوبه،

وإذا تربنا العزيزة تنظر إلى ولديها وتقهقه من فرط الضحك، وكلّما اشتد الصراع، وسددت الضربات وغزر الدم اشتد ضحكها وارتفع صوتها.. فأخذنا ندير أعناقنا مرة صوب الصغيرين ومرة صوب الأم.. والمصاولة تحتدم والصوت يرتفع.. حتى خشينا أن يهلك الطفلان وأمهما في وقت واحد. صحت في تِرْبي ذات الوجه الغريب: أسرعي وحولي بين الصغيرين، فنفذت نحوهما كالسهم، وكأنما كانت تنتظر مثل هذا الطلب وأمسكت أحد الصغيرين بيديها وأخذته إلى المأوى، وأدخلته فيه، وهو يقاوم في عنف، والدم يتفجر من الثغرات العديدة فوق أنفه وأعلى رأسه، ثم أسرعت نحو الثاني وقبضت على يده وساقته إليّ، ونظرت إلى الأم فإذا وجهها مكفهر، وإذا هي تسرع الخطى، وتضرب في الأرض باحثة عن الحب السمين، كأن لم تر شيئاً. وددت لو أدخل في أعماق هذه الترب في تلك اللحظة لأرى حقيقة شعورها؛ إنها بلبلت أفكاري وحيرت عقلي، لقد كانت قبل أن تلد مثال الكمال والاتزان، وكانت في أثناء الولادة والحضانة مثال التضحية والإخلاص، والآن ماذا جرى؟ أأنهكتها أيام الولادة والحضانة واستنفدت قواها؟! أُوحِيَ إليها أن قد تم واجبها وانتهى دورها، فمسحت يدها من أولادها؟ أرأت بعين الفطرة أن خير ما تصنع أن ينشأ أولادها معتمدين على أنفسهم اعتماداً تاماً كي تتكون فيهم الخشونة والصلابة اللازمتان لمقارعة الخطوب والأحداث؟ أَنَشَأَ بين عقلها وقلبها صراع فانتصر الأول وأضحت تسير بعقلها دون قلبها؟ وإني أعلم ما يكون جوابها لو تطفلت بالسؤال، ستقول لي بابتسامة ماكرة: انتظري حتى تصبحي أمّا... وهذا جواب سئمته لكثرة ما سمعته.

جاءت تِرْبي بالطفل وقالت: انظري كيف يتفجر الدم من وجهه..

فوضعت يدي على وجهه ومسحت دمه وقلت له: لم هذا الصراع؟ قال: دَأَبَ يأخذ الحب من أمامي فنصحته أن يكف فما كف، واليوم فار دمي ولم أتمالك أن لطمته فلطمني وشجر الصراع، قلت له: أتقتتلان من أجل الحب؟ قال: هو الذي بدأ العدوان، قلت: أي عدوان هذا الذي تبيحان في سبيله إراقة الدماء وإزهاق الأرواح؟ قال: تعدى علي ونقر حبي. قلت: حبك؟ الحب ملء الأرض وهو مشاع لجميع المخلوقات، ولو تركته يأخذ الحب من أمامك لتركك تأخذه من أمامه، ولو فعلتما ذلك لوجد كلّ واحد منكما كفايته وما فوق الكفاية.. يا عجباً لكما! أتجدان الحياة أثمن أم الحب؟ فرفع بصره إلي ثم ردّه وقال: أيستطيع مخلوق أن يستغني عن الحب؟ قلت: لا، قال: إذن الحب والحياة شيء واحد، ومن أخذ حبي كأنما أخذ حياتي... فحزَّ في قلبي قوله، وقلت له: ومن علمك هذه السفسطة التي كانت أعظم بلاء على الخلق منذ ظهروا على وجه الأرض؟ إن الحبّ في نفسه لم يكن في يوم من الأيام سبباً للنزاع بين الخلق؛ إن النزاع - إن جاز أن يقع - يقع حول ما هو نادر وثمين، والحَب ملء الأرض، ولو كوّمته لبلغ عنان السماء؛ إن النزاع، يا بنيّ، وليد الشهوات الجامحة، ومن ألجم شهوته بلجام القناعة، بنتِ الفطرة البكر، ما عرف النزاع في حياته قط؛ إن الحبة أو الحبات التي نقرها أخوك من أمامك ما كانت لترد عليك حياتك لو سلبت، ولو لم تمنعه أول مرة من أخذ الحب من أمامك ما تولدت في نفسه رغبة فيه، وما تعدّى على ما تزعمه حقا لك؛ فأنت إذن الملوم، فاذهب إلى أخيك واعتذر إليه، ولا تعد إلى مثل تلك السفسطة التي ترديكما معاً... فطأطأ رأسه مستحيياً وسار نحو المأوى.

(21)

قلّ الحب في الساحة لأول مرة، ومسّنا الجوع مسّاً رفيقاً في بدء الأمر، ثم مسا قاسياً لاذعاً في نهاية الأمر، فأخذنا نبحث عن الطعام في أطراف الساحة، ونضرب في الأرض حفراً ونقراً، وما نسقط إلا على ما يسد الرمق ويمسك النفس من التلف.

وقد عجبت لتِرْبي ذات الأجنة في أثناء هذه الحطمة؛ فقد كانت أقلنا تحملاً لتباريح الجوع، وأشدنا فزعاً من قلة الطعام، وأكثرنا نهماً وأكلاً. كانت تأكل كأنها لا تعرف الشبع، وكأنها كلّما أكلت زادت جوعاً؛ ترى أفُتِح أتون في جوفها يلتهم الأخضر واليابس؟ إن مثلها مَنْ ذاق الجوع فيما مضى من حياته وصبر له، كان ينبغي أن لا يجزع ولا يشره إلى الطعام... ولكن يظهر أن من ابتُلي بالحرمان ابتُليَ بالجشع، ولا أنكر أني وسائر العشيرة شعرنا برغبة ملحَّة في الطعام ما ألفناها في الأيام السابقة، وكأن غريزة المحافظة على الحياة كانت نائمة فاستيقظت؛ أنامها الأمان وأيقظها الخوف، فعلمت بذلك علم اليقين أن حياة المخلوق معرضة للوساوس والأوهام؛ يشبعه الوهم حيناً ويجيعه حيناً آخر، ومعدته ثابتة لا تتغير. إن استطاع المخلوق أن يتسلط على شهواته وغرائزه كان مزاجه أقرب إلى الثبات والاعتدال، وأبعد عن التأثر بطوارئ الأوهام.

لقد خشيت على الأولاد أن يفسد الجوع أخلاقهم؛ فهم أضعف منا أجساماً، وأرطب عوداً، وأرق إحساساً، وهم لذلك أقل منا تحملاً للجوع، ولكنهم ما استخذَوا وما وهنوا، وأخذوا يضربون في الأرض بجد ونشاط، ولما عزَّ الحب جاءوا يشكون إليّ ما يعانون. قلت: أيها الأعزاء! كيف يمسكم

الجوع وأنتم في منبسط من الأرض لا يحدّه البصر؟! فقالوا بصوت واحد: وهذه الجدران المرتفعة من يزيلها؟ قلت: إن عزيمة الشباب تعلو كلّ مرتفع، وتقتحم كلّ عقبة؛ ابحثوا عن ثغرة في الجدار وانفذوا منها إلى أرض الله الواسعة، فقالوا: لقد عودتنا حبَّ النظام وأوصيتنا أن لا نتعدى الجدار، وكنا في هذه الأزمة نشعر بقوة تدك الجدار، ولكنا أمسكنا خشية إغضابك. فقلت لهم بصوت فيه نشوة الظفر: لقد علمتكم في أيام الرخاء القناعة والنظام، وأريد أن أعلمكم في هذه الأيام السود التذرع بالفتوة، والسعي في طلب الرزق؛ إن ما مرّ ببال بعض الخلق، في يوم من الأيام، من أن العمل مراتب، منه الشريف ومنه الوضيع، ينبغي أن تنسوه أنتم حتى يصبح كأن لم يكن؛ إن اليد الخشنة المقرّحة بالعمل هي العليا، واليد الناعمة المطراة بالترف هي السفلى.. فما كدت أتم حتى تعالت الأصوات بقوة تخرق السمع: هيا!... فنظرت إليهم وعجبت لحناجرهم الرخوة كيف استطاعت أن تحدث ذلك الصوت المروع.. ودبت فيَّ حماسة لم أعهدْ مثلها من قبل، فقلت: قفوا.. ودعوني أتقدمكم في فتح الثغرة... وأقبلنا جميعاً نجوس خلال الجدران المتماسكة البنيان، باحثين عن نقطة نقتحمها، وفي لحظات فتحنا ثغرة خرج منها الأولاد كالسهام المنطلقة، وكان ذلك أول خروجهم لأكل الحَب بعرق الجبين.

تركت الأولاد وحدهم يستمتعون بنعيم الحرية، وفضيلة الاعتماد على النفس، ولذة البحث عن الطعام في أرض واسعة لا يفوز بخيراتها إلّا العامل المجد، وعدت إلى الساحة، فإذا بالأتراب يجلسن مكتئبات، وما كدت أصل إلى مقامهن حتى بادرتني إحداهن بقولها: أيتها الأخت كيف أبحث لهؤلاء الصغار الخروج من المأوى؟ قلت: إنهم ما عادوا صغاراً،

وهذا أوان خروجهم للسعي في طلب الرزق، فقالت ثانية: لقد عشنا في هذه الديار طويلاً دون أن نتعدى الجدار؛ فماذا جدَّ اليوم حتى يُخالف العرف، ويثار على النظام؟! وهممت أن أجيب، وإذا بتِرْبي ذات الأجنة تفتح فمها فأمسكت حتى أعرف رأيها، ولكنها بدلاً من أن تتكلم أخذت تضحك ضحكاً عالياً، يشبه ضحكها يوم تصارع ولداها، فغاظني عملها، ولم أخش قطع ضحكها، فقلت للتربين وعيناي مسلطتان على تِرْبي الضاحكة، إنكما تسألان عمّا جدّ حتى يُخالف العرف؛ لقد جدّ الشباب وجد الجوع، وواحد منهما خليق أن يدفع بالمخلوق إلى العمل، فكيف وقد اجتمعا؟ فقالت إحداهن: مثلك أيتها الأخت من يتذرع بالصبر في أيام الشدة، فكيف فقدت الآن صبرك؟! قلت: إن أولادنا يعيشون لزمن غير زماننا هذا، وقد جدَّ الآن، وسيجد غداً، من الظروف والأحوال ما يدعوهم أن يكونوا على أتمّ استعداد لمواجهتها بعزائم قوية وقلوب لا تعرف الخور والاستسلام. فقالت تربي ذات الوجه الغريب: صدقت والله أيتها الأخت العزيزة؛ إن من ينشأ على الاستسلام والاستخذاء يشبّ عليهما، وقد بلوت شرَّ ذلك في أسرتي؛ فقد رأيت الجيل الجديد يقفو أثر الجيل القديم، ويفوقه في التزيد من سيئاته، وما رأيت من يفكر في الخروج على المألوف، فساء حالنا حتى وصل إلى ما نحن عليه من التخاذل والفقر والضعة والفساد، فقالت ترب: ولم لم تثوري على العُرف؟ فقالت: لأني كنت أعتقد أن الفرد أضعف من أن يقوى على إصلاح غيره، بل إنه يعجز أحياناً عن إصلاح نفسه، ولما قدِّر لي أن التجئ إلى مأواكن وأكتشف أسراركن وأتتبع ما يجري كلّ يوم صرت أعتقد أن كلمة الخير شجرة مباركة لابدَّ من أن تنتج عاجلاً أم آجلاً، وأن حياة الركود والاستسلام جبن لا يقيم عليه إلا الأرذال من المخلوقات...

كانت صديقتي تتلكم وأنا في حالة من النشوة عجيبة، ولكني لم أعقب على قولها بكلمة.. كان يسكتني الفرح بالنصر... وما أدري ما كنت أستطيع أن أقول لو دعيت إلى القول.. وقد رحمني مجيء الأولاد يحملون بأفواههم الحب السمين والهنات الطيبات.

كنت أحسب تِرْبي ذات الأجنة تأبى مشاركتنا، فإذا بها تأكل بشره؛ لقد أوحيَ إليها أنها تأكل ممن أطعمت، وتتغذى ممن غذَّت، ففتحت شهوتها واندلع منها لسان حاد كلهب التنور لا يُبقي ولا يذر، وما أعرفُ أنّا أكلنا بمثل هذه الشهوة من قبل.

كانت الثغرة التي فتحت بويباً للفرج، فأضحت الآن باباً من أبواب الرحمة للأسرة جميعها... وما لبث الحَبُّ أن عاد كما كان في سابق عهدنا. ولكن الأولاد ما برحوا ينفذون منها إلى أرض الله الواسعة يلتمسون أشياء أجلَّ من الطعام... يلتمسون الحرية، حرية الحركة والسير، ويلتمسون الاعتماد على النفس، وفضيلة التعاون في بناء بيتهم الجديد، وأخيراً يلتمسون الرزق بعرق الجبين... وما شجر بينهم خلاف، ولا استطار شرّ، ولقد أصبحوا الآن نواة صالحة لمجتمع جديد..

(22)

وفيما أفكر في المستقبل الزاهر السعيد، وأسبح في عالم الآمال والأحلام، إذ تفاجئني تِرْبي ذات الوجه الغريب بقولها: أيتها الأخت الحبيبة! عزمت على مغادرة مأوانا الطيب. قلت: إلى أين؟ قالت: إلى بيتي القديم وعشيرتي القديمة. قلت: وكيف تعودين بعد الفراق الطويل؟ إني أخشى أن يصيبك

ضيم. قالت: إني لا أبالي بما يلحقني. قلت: ولكن أنا أبالي... قالتْ: يا أختي، أتبالين بالضيم يلحقك في سبيل المثل العليا؟ قلت: كلا والله! قالت: فكيف أبالي أنا إذن؟ ففهمت مقصدها وأنها عزمت على القيام بعمل عظيم.. وما كان لي أن أصدها عن عزمها، ولكن عزَّ عليَّ فراقها؛ لقد كانت أسرع الأتراب فهماً لآرائي، وأشدَّهن مؤازرة لي، وأحرصهن على التضحية في سبيل الخير العام. وقد كنت أعوِّل عليها كثيراً في تهذيب الأولاد، وقد أحبوها بقدر ما أحبَّتهن، والحب خير وسيلة لنقل الأفكار وبث المذاهب.

تملكني عاملان لفراقها؛ عامل الفرح لأنها ستحمل رسالة الخير والصلاح لعشيرتها، ومثلها خليق بالنجاح؛ فقد عرفت فيها مضاء العزيمة والبذل الغالي في سبيل المبدأ، ومتى اجتمعت العزيمة والمبدأ فلا مفر من النجاح. والعامل الثاني عامل الحزن، لأني أفقد صديقة مخلصة وعضواً كريماً في أسرتنا. قلت، والدمع ينحدر من عينيّ: ومتى تغادرين أيتها الحبيبة؟ قالت: بعد قليل؛ فإني ما ودّعت الأتراب والأعزاء، وقد كتمت عنهم أمر مغادرتي. قلت: ليرافقك التوفيق، وليسعدك النجاح؛ فهل لي أن أكلفك زيارتنا لنطلع على أخبارك؟ قالت: لن أتأخر عن الزيارة، ولكني عازمة على تنفيذ مبادئنا مهما كلفني الأمر، ولن أغادر العشيرة مهما بلغت الصعوبات من القوة والصلابة، وربما حجبني ذلك مدة. فإن تأخرت فاعلمي عذري. فهجمت عليها أقبلها وأدعو لها. وتعانقنا لحظات غبنا فيها عن الدنيا، وكأن روحينا انقلبتا إلى سائلين متمازجين..

ورآنا الأولاد على هذا الحال فهرعوا إلينا، وأقبل الأتراب فاجتمعت الأسرة كلّها، فقالت تِرْبي العاقلة، وهذه من الفرص النوادر التي تكلّمت فيها بعد الولادة: ما الخطب؟ قلت: جاءت تودعنا! قالت: وكيف؟ ألم تخبرينا

أنها التجأت إلينا؟ قلت: نعم، والآن حنّت إلى عشيرتها. قالت: ألم تقل إن حال العشيرة أسوأ من أن يحتمل؟ قلت: نعم.. فقاطعتني ذات الوجه الغريب قائلة: كنت أعتقد ذلك يوم جئت، ولكني غيّرت اعتقادي. قالت تِرْبي العاقلة: وكيف؟ أجاءك نبأ أن العشيرة صلح حالها؟ فأجابتها: لا... ولكن صلح حالي أنا. فقالت: عهدناك صالحة الحال منذ وفدت علينا، ولابد أن يكون ثمة جديد. فقلت: أيتها الأخت! نعم؛ ثمة جديد، لقد رأت أختنا بعين البصيرة أن شقاء أسرتها يمكن أن يحسم. قالت: وما سبيل ذلك؟ قلت: أن تعود إليها وتنشر فيها المبادئ السامية، فلا ينبغي أن توجد بقعة في هذه الدنيا محرومة من العدل والمساواة والمحبة والتعاون. ومن أولى بإصلاح تلك البقعة من أختنا؟ فقالت: وهل اتخذت ما ينبغي من عدة لمقاومة الأهوال ومصاولة الأحداث؟ فقالت ذات الوجه الغريب: نعم إن عدتي إيماني بصحة مبادئي واستعدادي للتضحية في سبيل تلك المبادئ.. فقالت: أيتها الأخت؛ إن جمعت بين الإيمان والتضحية فقد وفرت جميع أسباب النجاح. فأجابت: أيتها الأخت الرشيدة؛ لقد شقيت بشقاء عشيرتي مدة من العمر، وأنا لا أدري أين المصير، أفلا أشقى الآن مدة أخرى في سبيل تحقيق سعادة تشمل عشيرتي وتشملني طوال العمر؟ لو كان المخلوق مفطوراً على الوحدة والاستقلال الكلي عن المجموع لصحَّ له أن يشقى وينعم منفرداً عن عشيرته، ولكن كيف يستطيع مخلوق أن ينشئ قصراً جميلاً منجداً وسط مقبرة غاصَّة بالأشلاء والجماجم؟ إن من يزعم أنه يستطيع أن يفعل ذلك لأضل مخلوق على وجه الأرض؛ إنه قد يُلهى بزخرف قصره مدةً من الزمن، ولكن في اللحظة التي يخرج فيها رأسه من القصر، بل في اللحظة التي يفتح فيها نافذته ليستنشق الهواء الذي لا غنى له عنه، سيصاب دماغه بأقسى رجفة في الوجود؛ إن صدى

الصوت الواحد لا يؤنس، إنه يوحش.. يزلزل العقل.. يورث الجنون.

وما إن بلغت تِرْبي ذات الوجه الغريب هذا الحد اشتد صوتها واحمرَّت عيناها، فآمنت أنها صاحبة رسالة كانت مدفونة في أعماق صدرها، فدنوت منها، وقبضت على يدها، وقلت لها أيتها الحبيبة، إني رجوتك مرة أن تجنبيني الثناء عليّ خشية أن أصاب بالغرور، وأيضاً أن أتوهم ما يتوهم، ولكني مع ذلك لا أملك إلّا الثناء عليك؛ إنك تتكلَّمين بحرارة المؤمن الملهم. فقاطعتني قائلة: أيتها الأخت أيجوز أن نتقارض الثناء في هذا الموقف؟ بصّريني بعيوبي حتى أصبح خليقة بحمل رسالة الإصلاح، وحتى يرى الخلق أني تأدبت بمبادئي قبل أن أدعوهم إليها، وحتى يعلموا أن أول مرحلة من مراحل المثل العليا أن يبرئ المخلوق نفسه من العيوب والنقائص، ولعمري إنها أشق مرحلة... فقلت: أيتها الحبيبة! حالفك التوفيق.

(23)

طال انتظاري ولم تعد تربنا العزيزة، ولم يصل منها خبر، فاستحثني الشوق إليها، فخرجت وحدي مسترشدة بذاكرتي، وما كدت أسير قليلاً حتى رأيت عملاقاً من أولئك العمالقة الطغاة، فتجنبته لأني أعلم أن السلامة في تجنب الشر، ولكن حذري الذي فطرت عليه ألهمني أن أنظر إليه بطرف عيني، فإذا هو يرمقني بنظرات حداد، فأسرعت في السير، وألقيت عليه نظرة ثانية، فإذا هو يتبعني، فحدثتني نفسي أنه يُضمر شراً، فتباطأت لأتبين حقيقة مقصده، فإذا هو يسرع نحوي يطلبني،

فقلت في نفسي أيتوهم هذا العملاق أن ساقيه الطويلتين تتغلبان على ساقيّ الدقيقتين؟ إنه مخطئ لأنه محروم مما جبلنا عليه من الحرص والحذر. وتظاهرت بالعثور بحجر، ونظرت إلى وجهه وإذا الشره يرسم على فمه ابتسامة الظفر، وإذا هو يفتح ذراعيه كمن يريد أن يقبض على لص هارب، فقفزت وعدوت مسافة طويلة، فتوهم أني سأعثر ثانية وأن التعب سيجهدني ويوقعني بين يديه غنيمة مستساغة، فعدا وعدوت، وأخذنا نتراكض، وأخذت أدور به يمنة ويسرة أعلو نجداً وأنخفض في وهدة، أقفز على جدار وأنزل في تربة شائكة، والمسكين يدور إلى أن غمره العرق وتصبّب من جبينه، فأخذ بمنديله يمسح عرقه، ثم قاس ما بيننا من مسافة وتوهم أنه يستطيع أن يُطلق ساقيه في أقصى سرعة، فعدت من حيث جاء لأعلمه أن قياسه مضل، فعاد معي وأخذت أخفضه تارة وأرفعه أخرى إلى أن ظهر عليه الإعياء فالقنوط، وعندئذ مددت له حبل الأمل والتجأت إلى جدار أستدعي همته وأثير شرهه، فجازت عليه الحيلة وعدا نحوي، وما كاد يدنو حتى قفزت عن الجدار، فوقف يلعن حظّه، ويفرك يديه كما يفعل الخائب، فأشفقت عليه، ووددت لو أنفق جهده في سبيل أجدى عليه؛ وكم يُنفق المخلوق جهده في ضلال! ولو صوَّب بعض ذاك الجهد إلى ما فيه خيره وصلاحه ما احتاج إلى العدوان على الضعفاء؛ لو بذل هذا العملاق بعض ما أنفقه من مطاردتي وملاحقتي على حرث أرض لحصد خيراً كثيراً، ولو بذله في صنع آلة لباع واشترى، ولكن ما عليّ؛ فإني خرجت لأداء واجب فلأسلكنَّ سبيلي، وليذهب العملاق حيث شاء.

أخذت أستقصي الطريق فإذا المسافة التي قطعتها طويلة حقاً، وإذا

أنا في أرض شاسعة؛ لقد سرت أكثر مما توهمت، ولقد سار صاحبي العملاق أيضاً أكثر مما توهم، ولو حسب أنه قاطع هذه المسافة ما حمَّل نفسه هذا العناء، ولكنه عملاق يستقصر ما نستطيل، ويستقرب ما نستبعد، فملت ناحية ويممت شطر مرتفع تتوسطه شجرة كبيرة من شجر البلوط الضخم، فقلت: نِعْمَ المقام، ونِعْمَ المعتصم، وارتقيت الهضبة وجلست أستظل من حرارة الشمس التي كانت في وسط السماء.

جلست أتأمل ما حولي، وإذا على مسافة قريبة من أمامي طريق عريض اختطته العمالقة لأنفسها، وإذا على يميني ويساري أرض فسيحة تستدير في اتّساع حتى تشمل الهضبة، ولكنها تنبسط من ورائي أكثر مما تنبسط على جانبيَّ. ونظرت حول الشجرة فإذا حصى كثيرة، وإذا آثار موقد، وبعض الهنات، فأخذت أنقر وأستمتع بالهواء العليل، ريثما أستجم وأتابع السير إلى تلك الصديقة العزيزة.

واستوقف نظري عملاق يسلك الطريق التي أمام الهضبة فتأملته خشية أن يكون صاحبي فيعكر صفو مجلسي، وأ خذت أتابعه، وإذا هو عملاق آخر، فحدّقت إليه فإذا عتل مشمخر الأنف مصعّر الخدين منتفخ الأوداج فقلت: أتغدّاه قبل أن يتعشاني، وجمعت حولي حصى دقيقاً، فما كاد يظهر حتى حصبته فوقعت الحصاة على زجاجة تستر عينه، ولولاها لفقأت عينه، فوقف فجأة مذعوراً، وأدار وجهه صوب الشجرة ونظر، فلم ير أحداً، ويظهر أنه استصغرني فتابع سيره، فأخذت حصاة ثانية وسددتها إلى أنفه الضخم الأحمر، وأنا أرجو أن تفرغ ما فيه من كبرياء وطغيان، فيعود أنفه كما يجب أن يكون من الوسامة والاعتدال والتواضع، وما كادت تقع الحصاة حيث صوبت حتى صاح: وآ أنفاه..

فلم أستطع أن أحبس نفسي على الضحك، فارتفع صوتي ودوى في أذنيه الطويلتين، فنظر إليّ دهشاً، وقال بصوت مرتفع يستر ذعره: من هناك؟ وهممت أن أقول له: أنا.. لأعلمه أن الاستخفاف بخلق الله الضعفاء مسلك شائك، ولكني صمت لأختبر شجاعته، ولما لم إن يسمع جواباً أخرج منديلاً ووضعه على أنفه الدامي وهرول... إلى أين أيها العملاق؟ فما سمع هذه الجملة التفت برأسه دون سائر جسمه، وساقاه من تحته ترتعدان كأنه أمام أسد مفترس.. إلى أين أيَّها العتل؟ وهنا أعاد رأسه إلى الأمام وشرع يعدو كأنه في سباق... فأرسلت ضحكات كانت تقع على رأسه كصوت الرعد في الليلة الحالكة.

اكتفيت بهذا المشهد، وجلست أتأمل طباع هذه العمالقة الغريبة الأطوار؛ ترى الواحد منهم إن استضعف مخلوقاً من مخلوقات الله يسير في أمن واطمئنان، تأخذه حمية الشره، وتتملكهم شهوة الطمع فيطارد فريسته في قسوة الباغي، فإن استخذت الفريسة انقضَّ عليها وافترسها، وإن أبت عليه احتال لها، وإن طالت عليه تصبّر إلى حين، وإن كان المخلوق عزيز الجانب معتصماً بقوّته طلب العملاق الأمان، وتظاهر بالقناعة بالحرمان، وإن صاوله المخلوق وبادأه العدوان استخذى العملاق وولّى هارباً.

إن الحكم عند هؤلاء العمالقة لا يقوم على المُثل العليا، ولا على المبادئ الصحيحة، وإنما يقوم على أساس واحد، هو القوة، ولو كان الخالق يعلم أن خلقه سيستغلون حكمته في خلقه الكبير والصغير، والقويَّ والضعيف، لسوّى خلقه على غير هذه الصور، ولجعلهم أمة واحدة متساوية الأجسام والأحجام والعدة والقوى، ولكن الله يعلم أن العمالقة

لا تعدم حيلة للخروج عن كلّ تسوية يرتئيها، ولذلك خلق، وحمَّل كلّ مخلوق وزره على كتفه.

لست مكلَّفة أن أبلوَ العمالقة، ولست منهم وليسوا مني، وإنما طاردني واحد منهم وأخرجني عن قصدي، ودفعني إلى هذا الاختبار دفعاً، ولست أحب التمادي في الشر، وإن أركبته بالقوة..

تركت ذلك المجلس الأنيق وهرعت أبحث عن مسكن صديقتي العزيزة، وجددت في السير متجنبة كلّ عملاق، وبعد سير مضن بلغت المسكن، فسرت نحوه بحذر، وجلست تحت السور قليلاً أسترق السمع، وإذا صوت غناء يندفع برفق وعذوبة؛ يا الله! أتراهم ينشدون فرحين؟ أترى ذلك من عمل تِرْبي العزيزة! وقفت ونظرت فإذا هم في حلقات يرقصون، وإذا في وسط حلقة كبيرة صديقتي تغني فرحة، ومَنْ حولها يرد عليها؛ ليتني أستطيع أن أقفز لأكون في وسطهم أشاركهم في غنائهم! ليتني واحدة منهم ولو مدة قصيرة!

هممت أن أقفز فردّني عقلي؛ ورائي أولاد ينتظرون، ورائي أتراب يستفقدون، ومن يضمن لي العودة إن دخلت؟ ولمَ أضع نفسي في هذا المأزق؟ ألم يكن غرضي أن أتحقق من أمر صديقتي العزيزة؟ لقد بلغت الآن ما أريد؛ إنها سعيدة، ومددت عنقي ونظرت ثانية، وإذا الغناء يشتدّ في انسجام ورفق، وإذا السعادة تعم الأسرة جميعها، وإذا صديقتي تمعن في الغناء. نظرت إليها نظرات سريعة مودّعة، وقلبي ينفطر شوقاً للقائها... ولكن إلى المأوى... إلى الواجب فلأسرعن، وأنتِ أيتها الأخت الحبيبة لتحرسْكِ العناية الإلهية، وليبرّد الله شوقي بلقائك.

(24)

قصصت على أترابي ما رأيت في أثناء زيارتي لصديقتي ذات الوجه الغريب، فوقع في قلبهن من السرور مثل ما وقع في قلبي لتوفق صديقتنا العزيزة في إصلاح عشيرتها. ولمنني لأني ما دخلت مأواها.

أمَّا ما وقع لي مع العمالقة فقد أثار سخطهن وحنقهن، فقالت تِرْبي العاقلة: عجيب أمر هذه المخلوقات كيف تتعاشر وتتعامل، وكيف ينجو الضعيف من أنياب القوي؟ لابد أن تكون حياتهم سلسلة من الفتن والحروب؛ قالت ترب: لعلهم - وهم عمالقة متساوون في القوة- يتكلّفون السلم، ولا يقع بينهم ما نتوهم من قتال وصراع، فقلت: ما أظن الأمر كما تقولين أيتها العزيزة، لأن الضعفاء موجودون في كلّ جيل من الخلق، وكلّ مستقر من الأرض، ولابدّ أن يوجد بين العمالقة القوي والضعيف، الطموع والقنوع، الظالم والمظلوم، وإذن لابدَّ أن تكون الفتنُ والحروب بينهم مستعرة.

فقالت تِرْبي العاقلة، ترى على أية قاعدة يقوّم هؤلاء المخلوقات بعضهم بعضاً؟ لشد ما أحب أن أعاشرهم مدة لأختبر بنفسي أحوالهم؛ فقلت: كثيراً ما يُغني النظر عن التجربة، والمخلوق أعجز من أن يحيط بكلّ شيء ويميز كلّ شيء، ولذلك يستعين بالقياس على إدراك ما لم ير ومحاكمة ما لم يختبر، قالت ترب: وكيف ترين يقوّم بعضهم بعضاً؟ أم ترين أن ليس ثمة قاعدة؟ قلت: لا شك في أن عندهم قواعد؛ قالت: وماذا تكون؟ قلت: قد يقوّم بعضهم بعضاً بالقوة، فيقولون: فلان بقدر اثنين أو ثلاثة أو أربعة.

وقد يقوِّم بعضهم بعضاً بالجاه، فيقولون: فلان جاهه ضعف جاه فلان أو ضعفاه، أو ثلاثة أضعافه.

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالفضائل، فيقولون: عند فلان أربع فضائل، وعند فلان خمس فضائل، وعند فلان ست فضائل، وعند فلان جميع الفضائل.

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالمال. فيقولون: فلان يساوي كذا وكذا مالاً.

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالرذائل، فيقولون: فلان أقدر الخلق على الرياء، وفلان أقدرهم على النفاق، وفلان أقدرهم على الغش، وفلان أقدرهم على الكذب، وفلان أقدرهم على إيذاء الخلق، وفلان أفسد خلق الله، وفلان خائن يبيع دينه ودنياه بأقل ثمن، وفلان جَمَعَ نصف الرذائل، وفلان أحاط بها جميعاً. وهكذا.

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالعقل، فيقولون: فلان ربع عاقل، وفلان كامل العقل.

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالعلم. فيقولون: فلان ربع عالم، وفلان نصف عالم، وفلان كامل العلم.

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالنسب. فيقولون: فلان شريف، وفلان حسيب، وفلان عصامي، وفلان هجين، وفلان مقرف.

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالوزن. فيقولون: فلان وزنه كذا وكذا رطلاً وهكذا.

فقالت ترب: ما أكثر موازينهم! فقالت تربي العاقلة: أليسوا عمالقة؟ فقالت الترب: ألكونهم عمالقة يجب أن تكثر موازينهم؟ فقالت تربي العاقلة: للعمالقة أحكام. قلت: بلى؛ لهم ظروف وحالات هي التي استدعت كثرة الموازين. فقالت الترب: كيف تختلف الموازين باختلاف الأحوال؟ فقلت: عندما يكونون في حالة توحّش وعدوان يقوّمون بميزان القوة، وعندما يكونون في حالة غفلة عقلية وخلقية يقوّمون بالمال، وعندما يكونون في حالة انحلال واضمحلال يقوّمون بالرذائل، وعندما يكونون في حالة ارتقاء وازدهار يقوّمون بالفضائل، وعندما يكونون في حالة سمو في الفكر والعقل يقوّمون بالعقل، وهكذا...

فقالت الترب: عجباً لهم! وكيف يقبلون بهذه المتناقضات! فقلت: أيتها العزيزة: إن الضلال لا يأتيهم من خارج؛ إنه يأتيهم من أنفسهم. إن الحالة التي يكونون عليها هي التي تفرض عليهم المتناقضات فيقبلونها صاغرين؛ ألست ترين أن الجائع لا يفكر إلّا في الطعام، والخائف لا يفكر إلّا في الأمان، والمهزوم لا يفكر إلّا في النجاة؟ فالجائع يرى الشبع مثله الأعلى، والخائف يرى الأمان أمنيته الكبرى، والمهزوم يرى النجاة غرضه الأسمى، ويرون كلّ من كان حائزاً ما فقدوه أسعد خلق الله حالاً، وأكملهم خَلقاً وخُلقاً. ويضعونه في المرتبة العليا، ثم ينحدرون درجة فدرجة، وهذه هي فتنة الحالات التي تورث تعدد الموازين. فقالت تربي العاقلة: أوليس يصح أن يكون للعملاق قصد من تعدد حالاته؟ قلت: إن كان العملاق مختاراً في وجود تلك الحالة فَنَعَمْ، وإن كان مقهوراً فلا. قالتِ الترب: إذن قد تفرض عليهم حالات؟ قلت: نعم قد يُفرض عليهم أن يزنوا الناس بغير موازينهم، فيضعون الجاهل فوق العالم، والشرير

فوق الفاضل، والظالم فوق العادل، والجاحد فوق المؤمن، والخائن فوق المخلص، والقاعد فوق الساعي.

فقالت: أف.... فقلت: ولكن هذه حالات لا تدوم....

فقالت تربي العاقلة: ولو قدر لك أن تضعي ميزاناً صحيحاً دقيقاً، ثابت الأوزان، فكيف تقوّمين؟ قلت: أيتها الأخت، ليس المخلوق جسماً مسطحاً حتى نزنه بميزان واحد. فقالت ترب: إذن تجوّزين تعدّد الموازين وتناقضين نفسك؟ قلت: لا؛ إن المخلوق في نظري جسم ذو حجم يقوّم كسائر الحجوم، بالطول والعرض والعمق. فقهقهت الترب طويلاً. فقلت: رويدك أيتها الأخت، لا أقصد حرفيّة ما أقول؛ أقصد: إن للمخلوق ثلاثة جوانب؛ جانب هو العقل، وجانب هو الخلق، وجانب هو الإشعاع.

إن العقل منحة عظيمة، ولكن العاقل إن تجرد من الخلق فعقله كالعدم، والعكس بالعكس. أما الإشعاع فمثله واضح من الأضواء؛ فضوء يشع لمسافة ميل، وضوء يشع لمسافة بضعة أميال، وضوء يشع لمسافة أميال كثيرة؛ فالعاقل العظيم الخلق هو فاضل بنفسه ولنفسه، ولكنه يُقاس في نظري بإشعاعه؛ فإن كان يفيد أسرته فهو نوع، وإن كان يفيد عشيرته فهو نوع آخر، وإن كان يفيد أمته فهو نوع ثالث، وإن كان يفيد الأمم المجاورة فهو نوع رابع، وإن كان يفيد الخلق جميعاً بلا استثناء فهو أشرف الأنواع وأفضلها، وإن تجرّد من الإشعاع كان كالركيزة في المنجم لا تضرُّ ولا تنفع.

فقالت ترب: أويكون هذا الميزان ثابتاً في مختلف الحالات؟ فقلت: نعم، هو في نظري ثابت، قالت ترب: أهذا واقع؟ وما كدت أفتح فمي حتى مرّ

بنا شبح عملاق، ففزعت الأتراب وأسرعت إلى المأوى، وظللت في مكاني... ثم تذكرت الأعزاء فصحت بهم أن ادخلوا المأوى، فدخلوا، وما أبرئ نفسي من الخوف، فأنا أضعف من أن أردّ القدر إذا أقبل، ومر الشبح بسلام، ولكن الخوف وسوس في صدري؛ فهذه أول مرة يدنو شبح العمالقة من المأوى، وأول مرة نستشعر الخوف في حمانا، ومن لنا اليوم وقد فقدنا الزوج، وعزّ النصير؟

(25)

ظللنا بعد ذلك الحادث الذي وقع لي مع العمالقة أياماً لا شغل لنا إلّا ذكر العمالقة، وتصور أحوالهم، ويظهر أن الأتراب استمرأن الحديث عنهم، ورغبن في الإطالة والتفصيل، وكنت في أحاديثي عنهم أعتمد على القياس والاستنباط، وكان الأتراب يعجبن لما أقص عليهن حتى يذهب بهن العجب إلى حد الاستنكار والاستهجان، ولا أدري لم كانت تِرْبي العاقلة أشدّ الأتراب عجباً، وأكثرهن شكا بما أروي من غرائب أطوارهم، ولعلّها كانت تقدر أن عقو ل العمالقة على قدر أجسامهم، ولا يجوز أن يسكن الجسم الضخم إلّا العقل الضخم، وهذا ولا شك وهم، ففي عالمنا عمالقة آخرون، أصحاب قامات طويلة، وأجسام مهيبة كالجمال والبغال والحمير والخيل وما إليها، وليس فيها ما يدل على ضخامة عقولها. ولما ذكرت ذلك لتربنا العاقلة قالت: وما أدراك أن الجمال والبغال والحمير ليس لها عقول أعظم من عقول العمالقة؟ إن ما تذكرين من غرائب العمالقة وترّهاتهم وضلالاتهم ليحطهم عن قدر العمالقة الآخرين. فقلت: أيتها الأخت، إني

لا أحدثك عن خبرة عامة شاملة، وإنما أعتمد على القياس والاستنتاج، ومن يدري؛ لعلّني إن زدت اختباراً زدت ثقة بصحة ما أقول، ولكن ألست ترين أن العمالقة هم الذين يسخِّرون الجمال والبغال والحمير وما إليها لأنفسهم؟ ولو كانوا دونها عقلاً لما سخَّروها، بل لكان الأمر بالعكس. فقالت: أنت تحيليننني على ما رأيت، وأنا ما رأيت شيئاً، وما أدري أيركب العملاق الحمار أم يركب الحمار العملاق، ولذلك لا أستطيع أن أثبت أو أنفي، ولكن أذهب مذهبك في القياس والتقدير، ولا يمكن لعقلي أن يتصور أن العمالقة الآدميين أكبر عقلاً من تلك التي ذكرت. قلت: إنك يا أختي طيبة القلب، كبيرة النفس، ولو قدّر لك أن تخرجي من مأواك هذا لرأيت العجب العجاب. فقالت: نعم إني لم أخرج من مأواي هذا قط، ولشد ما أحب أن أضرب في الأرض، وأختبر سلوك الخلق وطبائعهم. قلت: ليتنا نصطحب في جولة. قالت: ولكني لا أجرؤ على الخروج، وأرى طرفي يرتد حسيراً حين يرتفع إلى مخلوق من المخلوقات خارج المأوى. قلت: أيتها العزيزة، لم يخلقك الله للمأوى، ولو شاء ذلك لخلقك معطلة الحركة، ولكنه ركّب فيك قوة السير والسمع والبصر، لتمشي وتري وتسمعي، وإن التزام المأوى تعطيل لقوى ركبها الخالق فيك، بل هي جحود لنعمته، وثورة على مشيئته. قالت: يا أختي، أتقولين هذا وقد بلغت من السن عتياً؟ قلت: أقول هذا ما دام في جسمك دم يدفعك إلى الأمام والوراء. قالت: ولكن العادة هي التي تحكمت. قلت: ليس للعادة حكم مع وجود مشيئة الله، وفطرة سليمة؛ فالله خلقك لتضربي في الأرض، والفطرة تكوّنت وفق المشيئة الإلهية، وكلّ عادة تخالف المشيئة والفطرة فاقذفي بها إلى جهنم. قالت: لله ما أبرعك في الإقناع! وأحسب لو أن الخلق يسيرون حسب ما توحيه إليهم عقولهم وفطرتهم لانقلبت نظمهم وتقاليدهم جميعها رأساً

على عقب. ترى كيف يسير الخلق الآن؛ أبحكم عقولهم وفطرتهم أم بحكم فطرتهم دون عقولهم؟ قلت: إنهم تارة يسيرون وفق العقل والفطرة، فتستقيم أمورهم، وتارة وفق العقل دون الفطرة، وتارة وفق الفطرة دون العقل، وتارة ضد الفطرة والعقل معا! ولذلك فهم في تناقض واضطراب وسوء حال. قالت: أيتها الأخت، لشدّ ما أحب أن أرى الخلق يسيرون بأحكامك مدة من الزمن، لأرى كيف يكون حالهم، قلت: ليت... وليت لا تُغني، إنما يغني العمل.

والتفتنا صوب الساحة، وإذا الحب يكثر. فقالت: أبشري خيراً، لقد بدأ الخلق يسير وفق هواك.

وأوينا إلى مضاجعنا مبكرين، وقد نعمنا بالطعام والشراب، وفي صباح اليوم التالي شعرنا بحركة غير مألوفة خارج المأوى، ففزعنا، وبعد قليل فتح الباب، وإذا بعملاق يدخل المأوى وفي وجهه شر مروع، فتراكضنا في المأوى وهبَّ الأولاد من نومهم مذعورين أشد الذعر، وجالت يد العملاق فينا جولة الإرهاب، فقبضت على أترابي جميعهن الواحدة بعد الأخرى، فصحنا وصاح الأولاد، والعملاق منصرف عنا، وبعد أن خرج نفر من الأولاد مسرعين نحو الساحة، وخرجت وجسمي يرتعد من الذعر، وأخذت أتفقد الأعزاء واحداً واحداً، فإذا هم جميعاً في الساحة فجمعتهم وحاولت أن أزيل ذعرهم ولكن من أين للمذعور أن يطمئن المذعور؟ ومن أين للموتور أن يواسي الموتور؟ لقد حلّت بنا مصيبة تجل عن العزاء والتواسي؛ تجلدت في ساعة يعزّ فيها التجلد، وتصبرت في ساعة لا يجدي فيها الصبر. قال الأعزاء والدموع تنهمر من عيونهم: إلى أين سيقت أمنا ونساؤنا؟ فأخذت أترضاهم بذكر ألطف الاحتمالات وقلت: لعلّهم نقلوا

إلى مأوى آخر. فقالوا: كيف يشتت الشمل، ويحال بين الأم والأبناء؟ وأياً كان المكان الذي يسقن إليه فإنهن لن يعدن إلينا. قلت وقد أعجزتني الحيلة وخانني المنطق: ذلكم ظلم العمالقة، ولا حيلة لنا سوى التذرع بالصبر والركون إلى القدر.

لله ما أقسى الدهر! هذه أسرة آمنة وديعة، تبطش بها يد عملاق فتهد أركانها وتزلزل كيانها، وتورثها الحزن والألم في غمضة عين؛ ماذا جنت هذه الأسرة حتى تحل فيها النقمة والبطش؟ وماذا اقترفت من ذنب حتى تعاقب أقسى عقاب؟ إني وحدي أعلم أين سيق الأتراب؛ فقد لمحت في عين العملاق شراً يشبه بريق السكين الحادة. إن القتل جريمة لا تغتفر، ليتني صدقت تِرْبي العاقلة حين قالت إن عقول الجمال والحمير والبغال أكبر من عقول أولئك العمالقة؛ ليتني صدقتها فأرضيتها وأرضيت الحقيقة التي نطقت بها. أنا التي بلت العمالقة، ولمست مساوئهم ووقفت على حقيقة حالهم أخالف تِرْبي العزيزة في الحكم عليهم وهي التي ما بلت شرهم، ولا ذاقت حلوهم ومرهم! أنا التي تعتمد على القياس والاستنتاج أناقض نفسي بنفسي وآبى أن أقبل حكماً تدعمه المشاهدة ويؤيده الاختبار.

وامصيبتاه!.. واثكلاه!.. أحقاً سنبيت في مأوانا والأتراب في غير دنيانا؟ أي مأوى يسعنا؟! وأي دنيا تتسع لأحزاننا وآلامنا؟! أي ماء يستساغ؟! وأي طعام يستمرأ؟! بل أي حياة تطاق بالفراق وشتات الشمل؟! إني أحس أن جلدي لا يسعني، وأن دمي يكاد يتفجر في عروقي.

من لهؤلاء الأولاد؟! ومن لي لنفسي؟! ولكن، على عاتقي مسؤولية لا أستطيع أن أغفل عنها، لقد ألزمت نفسي بالمحافظة على هؤلاء الأعزاء،

وأنا الآن أشعر بأن مسؤوليتي تضاعفت؛ فقد وضع في يدي وحدي مصير أرواح بريئة.

إلى المأوى يا أعزائي لقد أقبل الليل، إلى المأوى؛ ففي ظلمة الليل سكن للثكالى واليتامى، إلى المأوى من شر الزمان.

(26)

اشتد ألم الأولاد لخطف الأتراب وانقلب إلى حقد حاد، والحقد يتفجر في صورة عداء أو صراع، وكم مرة حاولت أن أعالج الأمر لأمنع تطوره إلى صراع أو عداء، لأني أعتقد أن كلا هذين المظهرين يخرجهما الطغيان من حكم العقل إلى حكم العاطفة، وويل للعاطفة إذا تحكمت في شر؛ فإنها تبيح كلّ ما يأباه الخلق والمنطق والقوانين العامة. وقد كانت سورة الفتوة تعين على تأصيل الحقد، ولم تكن الأيام لتعينني على تخفيفه، لأن آثار الأتراب في المأوى والساحة كانت أبلغ من أن تُمْحَى، ولأن الحقد مرض عضال يزداد مع الأيام.

ويظهر أن مبالغتي في معالجة الحقد دفع فريقاً من الأولاد إلى التشاور سراً في أمرهم، والاتفاق على الانتقام من العمالقة، واستطاع الأولاد جميعاً أن يُجمعوا رأيهم ويوحدوا خططهم، وزعّموا عليهم واحداً عُرف بأنه أكملهم عقلاً وأشجعهم قلباً، وأجملهم خلقاً. إن هذا الذي زعّموه يعطيك وجهه صورة فتى رشيق فاتن كامل الحسن، ويلاه من عينيه إن نظر! وويلاه من طلعته إن أقبل! وويلاه من صوته إن تغنى أو تحدث! أما عقله وقلبه فكعينيه صفاءً وحِدَّةً ونفاذاً.

وفي الصباح الباكر فتح الأولاد باب المأوى في غاية الرفق والاحتراس، وأخذوا يتسللون منه الواحد تلو الآخر، وهم يظنون أني غافلة عنهم بالسبات العميق، وما دروا أني اتخذت من عيني ديدباناً عليهم، وأني شعرت بحركاتهم منذ فتحوا الباب إلى أن خرجوا. فارتبت في أمرهم، ولحقت بهم قبل أن يصلوا إلى الثغرة المعهودة التي أقاموها في الجدار، وما رأوني حتى بهتوا، فعدوت إلى الثغرة وسددتها بجسمي، وقلت: إلى أين أيها الأعزاء؟ فلم يجيبوا. فقلت أخبروني إلى أين تذهبون لأذهب معكم، أو يصح أن تغادروني وراءكم في المأوى؟ فاحمرت وجوههم خجلاً، ولكنهم التزموا الصمت. فأقبلت نحو زعيمهم وقلت: أيها الحبيب، ما تعودتم أن تكتموني أمراً، وما تعودت أن أكتمكم أمراً، فأخبرني الآن إلى أين تذهبون في هذا الصباح المبكر، فقال ليس في كتماننا أمرنا ما يحط من مقامك عندنا؛ فأنت أيتها العزيزة لنا في مقام الأم والأب، وما كنا لننسى صنائعك. فقلت: إن كنتم تتخذونني أباً وأماً فلا ينبغي أن تبرموا أمراً دون إطلاعي، ولست أبيح لنفسي أن أخالفكم فيما عزمتم عليه إن كان فيه صلاحكم. فقال أحد الأولاد: لنطلع أمنا على ما عزمنا عليه، وسرت كلمته بسرعة في رفاقه، فقالوا جميعاً بصوت واحد: نعم لنطلعها. فتقدّم الزعيم وقال: أمَّنا العزيزةَ، عزمنا على الانتقام من أولئك العمالقة الطغاة الذين انتهكوا حرمة بيتنا، ووترونا في المستضعفين منا، ولو أنهم تعدوا علينا لما بلغ الجزع والألم هذا المبلغ. فقلت: هل فكرتم في قوة العمالقة؟ قال: فما ينبغي للموتور أن تمنعه قوة خصمه من الثأر، إن العمالقة سلبوا نفوساً عزيزة وتركوا نفوساً رخيصة، وبذل الرخيص في سبيل الغالي ما يحتاج إلى فكر. فقلت: وإن قضى عليكم العمالقة فتخسرون خسارة مزدوجة. قال: لا خسارة في سبيل أداء الواجب. قلت: ألا تريدون

أن تؤدبوا العمالقة لتقتلعوا من نفوسهم أصول البغي والعدوان؟ فصاحوا جميعاً: بلى، قلت: إن عملكم سيقوي فيهم العدوان، فظهرت الدهشة على وجوههم، وقالوا: كيف؟! قلت: لأن مقابلة الشر بالشر والظلم بالظلم والعدوان بالعدوان ستؤدي إلى نتيجة واحدة لا شك فيها. قالوا: ستؤدي حتماً إلى الانتقام، وهو النتيجة التي نريدها؛ وأثارت كلمة الانتقام نفوسهم وتدافعوا يطلبون الثغرة، فقلت: رويدكم أيها الأعزاء! لن تكون النتيجة الانتقام؛ إنها ستكون إعلاء شأن الظلم والطغيان. فالتفت بعضهم إلى بعض دهشين وقالوا: كيف؟! قلت: ستكون النتيجة المحتومة أن يصرعكم العمالقة، وعندئذ يكون الظفر للقوة؛ أفتريدون أن تتحكم القوة في الخلق؟ أم تريدون أن يكون الحكم للحق وحده؟ ومن جهة ثانية إن علاجكم الذي ترتؤونه لا يجديكم نفعاً، ولا يوصلكم إلى حق، لأن العمالقة ستستفز قوتهم وتستثار حميتهم، فيمعنون في البغي والعدوان، فتكونون قد أعنتم الظلم على غيركم من الخلق من حيث أردتم أن تكافحوه. فرأيت على وجوههم أمارات الهدوء، فقلت: إن كنتم تريدون أن تنتقموا حقاً فأنا معكم. فقالوا جميعاً: نعم نريد... نريد... فقلت: فاسلكوا السبيل الذي أرسمه لكم، فقالوا: ما هو؟ قلت: هو سبيل واحد لا ثاني له؛ هو أن تنشروا المبادئ السامية التي تصور الطغيان والبغي والظلم أصدق تصوير، وتدعو الخلق إلى مكافحتها أشد مكافحة. ما من مخلوق في هذا الوجود يستطيع أن يعيش في أمن وسلام إن كان الحكم للقوة، وما من مخلوق يتأخر عن بذل كلّ مستطاع في سبيل إزاحة حكم القوة؛ إن الله برأ الخلق للتعاون، وحكم القوة لا يحقق تعاوناً ما في العالم. أيها الأعزاء، إن الفاجعة التي حلت بكم، حلت بي، بل كان نصيبي منها أضعاف نصيبكم، ولو كنت أعلم أن الانتقام يشفي ما بنفسي شفاء

تاماً، بأن يهد أركان الظلم من أساسها، ما تأخرت عنه. إن الانتقام من الخصم القوي المستبد يورث هلاكنا، ويعزز فيه البغي والعدوان وهذه نتيجة يجب أن نتجنبها. ونظرت إلى وجوههم، وإذا الجمرات التي كانت تتقد في عيونهم قد همدت فقلت: تعالوا نبحث السبل التي يجب أن نسلكها، فقال أحدهم: وهل هذه الحادثة التي وقعت لنا تكررت؟ قلت: كثيراً؛ ففي كلّ بقعة من هذه الدنيا قوي وضعيف، ظالم ومظلوم، واتر وموتور، معتد وبريء، ولو قدر لكم أن تسيحوا في الأرض لاختبرتم بأنفسكم ضروب العدوان، ولثارت عاطفة الانتقام في نفوسكم مرات كلّ يوم، ولكنتم بلوتم من ضروب الظلم أشكالاً وألواناً، فهناك ظالم يظلم بالقوة دون تستر، وظالم يطغَى ويتجبر منتحلاً المعاذير، وظالم يتترس بالحق، وهو أبغى البغي، هذه ضروب من الظلم لن تعالج بالانتقام الذي ائتمرتم عليه في أول الأمر، ولو كان خصمكم في قوتكم أنتم. أما ترون في كلامي هذا نصحاً لكم وتأييداً لغرضكم الأسمى؟ قالوا جميعاً: بلى، فالتفت إلى زعيمهم وقلت: وأنت أيها الحبيب، ألم تعلم مقدار حبي لكم؟ لقد نشأتم في أحضاني، وسعدت بعشرتكم مدة طويلة، وبنيت عليكم الآمال، وأوقفت عليكم الرجاء، وأردت لكم أن تسعدوا وتُسعدوا؛ فكيف تريد أن تهدم ما بنيت؟ وتخيب ما رجوت؟ أهذا جزائي؟ فنظر إليَّ بعينين مغرورقتين بالدموع وقال: يا أماه، ما أردنا بك شراً، وما كتمنا عنك عزمنا إلّا لنجنبك التهلكة من دوننا، فقد كنا نعلم أنا واردون سبيل الهلاك، فأردنا أن نرِدَهُ وحدنا. إنك تعلمين أنك أعز علينا من أرواحنا، وإن شئت فدونك التجربة فاصطنعيها. فما تمالكت أن هجمت عليه وقبلت عينيه وقلت له: إن حياتكم أعز عليّ من حياتي، بل هي أعز ما أحرص عليه في هذا الوجود. وإن كنت أفرّط بأرواحكم فسأفرِّط بروحي قبلكم؛ إني أرى

أرواحكم مشاعل نور ستضيء العالم أجمع، ولن يخبو نوركم قبل أن أرى ضياءه قد شع في جميع أطراف العالم؛ إن الحياة هبة غالية من الله، ولكنها تنقلب إلى أرخص قنية حينما تبذل في سبيل مرضاة الله، ومرضاةُ الله لن تكون إلّا بنشر العدل والحق والسلام بين جميع المخلوقات.

(27)

لقد توطدت بيني وبين الزعيم محبة لا أدري كيف أصفها؛ إذا رأيته لمع في قلبي بريق يضيء بين جوانحي ويملؤني بهجة وطرباً، وإذا غاب عني شعرت بظلمة في قرارة نفسي فلا يستقر لي مقام، ولا أرضى عن شيء مما أراه حولي؛ فكأني أفقد نفسي وبصري وسمعي وإحساسي، ولا يردها أحد سواه. ومع أني أشعر بحب عميق لجميع الأولاد، وأرى فيهم أماني التي كرست حياتي من أجلها فإن حبي للزعيم من نوع آخر؛ إني أنشرح برؤية الأولاد، وأطمئن إلى وجودهم بجانبي، وأطرب لمداعبتهم، ولكن ليس من بينهم أحد يستولي على قلبي، وينتزعه من أضلاعي إذا شاء، ويردُّه إليّ إذا شاء سواه؛ فما هذا الذي أشعر به نحوه؟ وما حقيقته؟ أهو إعجاب بعقله الراجح، وشجاعته النادرة؟ أهو تقدير لما يتحلى به من جمال الصورة وبهاء الطلعة ورشاقة الحركة؟ أهو تأثير بفعل ما في عينيه من بريق نافذ ونظرات ساحرات؟ الحق أني لا أدري؛ فأنا التي أستشعر بمواهبي وأعتز بمبادئي وأثق بخالقي، أنا التي فاديت براحتي وحياتي في سبيل المثل العليا، أقف الآن حائرة مستسلمة أمام ظاهرة طرأت عليّ منذ أيام قليلة! أنا التي كنت أعتقد أني أستطيع أن أحل المشاكل، وأفك الألغاز، وأجلو

الغوامض، أقف الآن عاجزة عن حل أمر يتعلَّق بنفسي وحدها!.

كان أول عهدي بهذا الشعور الغريب، ذاك اليوم الذي ائتمر به الأولاد على الانتقام؛ فمنذ تلك الحادثة التي اضطررت فيها إلى توجيه حديثي إلى الزعيم، وأنا أشعر بنمو عاطفة في سويداء قلبي. كانت النظرة الأولى إعجاباً محضاً، وتقديراً محضاً، ثم انقلبت إلى حب فوله ذي تباريح. أماكيف انقلب الإعجاب إلى حب فما أدري، وكلّ الذي أذكره بشيء من اليقين هو أنه استولى على قلبي استيلاء تاماً.

لقد عرفته في أول الأمر جملة، فرأيته واحداً من أولئك الأعزاء الذين احتضنتهم وأوقفت عليهم جميع أفكاري وآمالي، ثم حينما أحببته صرت أعرفه جزءاً جزءاً. أنظر إلى عينيه فأراهما كوكبين ساطعين ذوي إشعاع يملأ الدنيا نوراً وسناء، وأنظر إلى فمه فأرى خلاصة العاج قد استدق وملُس وسوي في أجمل صورة. وأنظر إلى عنقه فأرى غصناً رطيباً كساه ورق المنثور، وعطّره أريج الياسمين، وأنظر إلى قدميه فأرى حبك الجواشن ركبت غصني ورد أرجواني اللون، وأستمع إلى صوته فأسمع أعذب الألحان تنبعث من قيثارة داوود؛ كلّ شيء فيه وكلّ شيء منه يوحي إليّ أجمل ما وقعت عليه عيني وسمعت به أذني.

وما أشك في أنه يحترمني ويجلني من أعماق قلبه، أما أنه يشعر نحوي بما أشعر به نحوه فأمر ما أستطيع أن أقطع فيه. لعلّه يضعني موضع الأم من نفسه، ولعلّه أيضاً يحبني حب الابن لأمه، ولكني أحبه حباً يختلف عن حب الأم لابنها؛ أحبه حبي لزوجي، أحبه بعواطفي ودمي وأعصابي. وهو من جهة ثانية يرى ما بيني وبينه من خلاف في السن

فيراني أكبره بشهور عديدة؛ نعم إني لست من سن أمه، وحرارة قلبي تنبئني أن الاختلاف بيننا ليس بالحدّ الذي يحول دون تمازج الروحين، ولكن أهذا يا ترى من تصور الخيال؟ وما يجدي قولي هذا إن كان هو لا يبادلني حبي؟ فأنا لو كنت أصغر منه سناً فلست بكاسبة قلبه، إن كان هو لا يعطيني إياه طوعاً؛ فالعمر ليس عاملاً من عوامل التفرقة بين قلوب العاشقين، فقد يحب كبير صغيرة، وتحب كبيرة صغيراً، والعاشق لا يجعل العمر شرطاً لعشقه.

فاض حبي في يوم من الأيام، وقسا عليّ فسلبني الصبر والقصد، فما تمالكت أن خلوت به في جانب من جوانب الساحة، ولم أجد عناء في هذه الخلوة، فكأنه كان ينتظر إشارتي ليخلو بي، فجلسنا متجاورين، وعنق كلّ منا ينحرف في اتجاه صاحبه، وبادأته الحديث فقلت له: يا حبيبي، أتدري لم استدعيتك إلى هنا؟ فابتسم وقال: لا. فنظرت إلى عينيه نظرة طويلة أستلهم منهما القدرة على الكلام، وقلتُ له: تفكر لعلّك تعرف، فرمى ببصره إلى الأرض وقال بعد تأمل: لعلّك تريدين أن تكلفيني عملاً دون سائر إخواني، فاضطرب قلبي اضطراباً شديداً، وشعرت بأن عقلي قد خلا من كلّ شيء، وأن عقيدتي التي أوقفت عليها حياتي قد ملأت ذلك الفراغ جميعاً، وما عدت أرى أمامي شيئا سوى تلك العقيدة؛ فكأن حبي قد غاض وخرج من قلبي، وعدت إلى حالتي القديمة قبل أن أشعر بالحب، فأشحت بوجهي عنه، وجمعت شعوري وتفكيري في لحظة رهيبة، وقلت في نفسي: إنه ينظر إلي كأمه وأبيه ومرشدته، ويتوقع أن أكل إليه عملاً في سبيل تلك العقيدة السامية؛ إذن لأكتمْ حبي، بل لأنتزعنَّه انتزاعاً من قلبي، ولأروِّضَنَّ نفسي على التبتل، ولأحدثنَّه في الموضوع الذي يتوقعه، فوقفت

ثم ابتعدت عنه قليلاً، ثم جلست ونظرت إلى وجهه لأجاريه في الحديث عن الموضوع الذي يفكر فيه، فما كادت عيناي تقع على عينيه حتى غاضت العقيدة، وغاضت المبادئ، وعادت إلى قلبي نيران متأججة، وطغت سورة الحب على نفسي، فقمت مضطربة أشد الاضطراب وجلست مجلسي الأول، ومددت يدي وأمررتها على وجهه الجميل وقلت له: يا حبيبي، أنت.. أنت... وأمسكت؛ قفل فمي وعدمت النطق، فقبض على يدي، والبشر يتلألأ في وجهه وقال: أيتها الحبيبة... وظلت يدانا متماسكتين لحظات شعرت أننا اتصلنا فيها اتصالاً روحياً، وتفاهمنا جملة وتفصيلاً، وأطرقت، وأطرق، وأظن أنه هَمّ أن يتكلَّم، ولكن قدوم الأعزاء علينا في تلك اللحظة حال دون الكلام؛ ليتهم تأخروا قليلاً حتى أسمع صوت حبيبي مرة أخرى، ولكن ليت لم تجد مرة واحدة في جميع الحالات؛ أفتجدي الآن؟!

فقمت وتبعني واختلطنا بالأعزاء، وسرنا جميعاً نبحث عن الحب السمين في الساحة.

ومرت أيام وفي نفسي صراع عنيف سلب السهاد من عينيّ في الليل، والراحة والطمأنينة من قلبي في النهار؛ كان الصراع بين عقلي وقلبي، ويعلم الله ما بلوت من جهاد واضطراب في أثناء الصراع. كنت أود أن يصرع أحدهما الآخر بلا رحمة، وأن يخلص لي واحد منهما، ولكنّ القوتين كانتا متكافئتين؛ فتارة أشعر أن عقلي تغلب وانتهى الأمر، وتارة أخرى أشعر أن الغلبة لقلبي، وأن عقلي مصروع لا محالة. ما شعرت باليقين في غلبة أحدهما على الآخر في حالة من الحالات. كان عقلي يقول: أنا الغالب، لقد قمت على أساس مكين من المبادئ السامية، ولست وليد اللحظات، وإنما أنا وليد أيام وشهور وقد عانيت المصائب والأهوال فنشأت كأقوى

ما يكون مخلوق من الصلابة والإيمان، ولن أتراجع، ولن أستسلم. ويقول قلبي: أنا الغالب، لأني ابن الفطرة والغريزة، وهما خالدتان؛ نعم إني ابن الساعة، ولكن أصولي راسخة في أعماق النفس منذ نشأت الحياة، فأنا لست وليد الساعة، ولكني وليد الحياة نفسها، أُخلق معها، وأموت معها؛ ليس الصراع جديداً فقد ورثته عن آبائي وأجدادي منذ ظهرت الخليقة، وسيكون لي الظفر كما كان لأسلافي من قبلي.

بمثل هاتين اللغتين، وبمثل هذه الحجج المبينة كان ينطق كلّ من عقلي وقلبي في أثناء صراعهما العنيف، وأنا بينهما كالريشة في مهب الريح، يقذف بي هنا وهناك بقوة؛ اللهم كن في عوني وأرحني من هذا البلاء الذي تملكني واستذلني.

(28)

ولما لم يتسع صدري للصراع العنيف الذي شبّ فيه، رأيت أن أخرج إلى الطبيعة، أستعين بفضائها الرحب على تخفيف الضيق الذي ألمّ بي؛ فكنت أخرج مع الأعزاء كلّ صباح نتريض ونلهو مستعرضين كلّ ما تنبته الطبيعة من مختلف النباتات والأزهار.

لقد عجب الصغار لهذه المخلوقات النباتية التي لا يحصيها عد؛ فمن أقحوانة ناصعة البياض، متناسقة الأجزاء، ملتفة حول زر أصفر فاقع لونه إلى شقيقة من شقائق النعمان عريضة الأوراق أرجوانية اللون معقودة حول زر أسود منمنم إلى زنبقة ناصعة البياض محلاة من أسفلها بلون أصفر، ذات أريج فوّاح إلى قرن غزال زهرية اللون طويلة

العنق مركبة على ساق رقيق ذي لون أحمر إلى ما لا يحصى من الأزاهير العجيبة الشكل واللون والرائحة.

وقد فطن أحد الصغار إلى اتساع الأرض لهذا الكثير من الأزاهير فقال: أمّاه، أيقع خصام بين هذه الأزهار؟ قلت: ولمَ يقع؟ قال: ألا تستأثر زهرة بمكان خصّص لغيرها؟ فضحكت وقلت: إن هذه الأزهار تنبت وتحيَى بوحي الفطرة، والفطرة عاقلة، فإذا وجدت زهرة أن المكان ضيق انحنت قليلاً ونبتت في مكان آخر. قال: وكيف ترضى الزهرة الأخرى عن مجاورتها؟ قلت: إن الفطرة هي التي توزّع التربة على الأزاهير، وهي التي تكفل لها الحياة، وهي أعقل من أن تحدث ازدحاماً يسبب نزاعاً بين مختلف الأزاهير.

واسترعى لون شقائق النعمان الأحمر والأسود نظر آخر من الأعزاء، فأطال النظر فيها وقال لي: أمّاه، كيف اجتمع الأحمر والأسود في زهرة واحدة، ألا يفاخر أحدهما الآخر؟ قلت: إني لأعجب لكم أيها الأعزاء كيف تفرضون الاختلاف والخصام في كلّ شيء تقع عليه عيونكم، كأنكم تفترضونهما أمراً طبيعياً لا مفر منه؛ إن الطبيعة أيها الأعزاء أعلى وأسمى من أن تُخْضِعَ جميع مخلوقاتها لهذا النظر الضيق، إنها لا تميز ما تنبت، فجميع الأحياء على وجهها متساوون؛ فليس الأسود بأعزّ من الأحمر، وليس الأبيض بأحب إليها من الأصفر، وهي قد نوعت عن قصد، فلمَ نحاول إساءة فهمها، وتأويله شر تأويل؟ قال: وما القصد؟ قلت: القصد إرضاء المشيئة الإلهية في رؤية الخلق على أجمل وأبدع نظام؛ فلو جاء لون جميع الأزاهير واحداً وشكلها واحداً لا نعدم الجمال فيها، ولكانت الحياة مملة منفّرة.

عدنا إلى مأوانا عشية يوم بعد نزهة جميلة، وما كدنا نبلغ الثغرة حتى أحسسنا حركة غير مألوفة في داخل المأوى، فوقفنا وهممنا أن نعود خشية أن نكون قد ضللنا الطريق. ولكنا تفحّصنا الساحة بقعة بقعة، فإذا هي ساحتنا، فدخلنا الواحد تلو الآخر، وإذا الساحة كما هي لم يصبها تغيير أو تبديل، ثم اتجهنا إلى المأوى ونظرنا إلى داخله، فإذا هناك مخلوقات غريبة عنا، فولجت الباب وإذا مجالسنا مشغولة، ففزعت وصحت: من هنا؟ فردت علي أنثى قائلة: لا تجزعي أيتها الأخت؛ نحن مخلوقات مثلكم حُملنا إلى هذا المأوى، ولم نعرف أين نحمل. قلت: أهاربات من ضيم وعذاب أنتن؟ قالت: لا؛ إنما حملنا إليكم من بيوتنا. قلت: أتمكثن طويلاً هنا؟ قالت: لا علم لنا بذلك. ودخل الأعزاء، وتقاسمنا المأوى وبتنا ليلتنا في ضيق. وفي الصباح خرجنا إلى الساحة جميعاً، ورأيت في وجوه الأعزاء تبرما واضطراباً، وجاءوا إليّ يشكون: المأوى لا يتسع لنا جميعاً. قلت: تريّثوا أيها الأعزاء؛ فليس من الخلق أن نطرد من نزل علينا ضيفاً، فقالوا: ولكن المأوى أضيق من أن يتسع لنا ولهم.

وجاء وقت الطعام، وانتشر الأعزاء في الساحة دأبهم كلّ يوم، وتنحيت جانباً أرقب القادمات فإذا خلاف يدبُّ بينهن، فهذه تستسمن حبة فما تكاد تصل إليها حتى تقفز إليها أخرى محاولة أن تنتزعها من فمها، وإذا الكبيرات منهن يضربن الصغيرات، ويمنعنهن من التماس غذائهن. أشفقت عليهن، وودت لو تركن الخصام؛ فالحب كثير، والطعام وفير. فذهبت إلى إحداهن وقلت لها: أيتها العزيزة، لِمَ تضربين هذه الصغيرة؟ فقالت: يا أختي؛ إن في هذه الصغيرة سوء أدب لو بلوتِهِ ما أشفقت عليها، فقلت لها: ما رأيت فيها سوء أدب؛ فهي تأكل كما يأكل سائر أخواتها،

وليس عقاب سوء الأدب - إن وجد- الحرمان من الطعام. وفيما أنا أحدثها إذا صراخ يعلو في جانب آخر من الساحة، وإذا إحدى الصغيرات تستجير من أخرى كبيرة ضربتها في رأسها ضربة موجعة، فأسرعت نحوهما وحلت بينهما، وقلت للصغيرة: لم تعتدين على مقام أختك الكبيرة؟ فقالت: أيتها العزيزة، ما اعتديت، وإنما هي تريدني على أن أكون خادمة لها، أجمع لها الحَبَّ بنفسي، وأقدّمه لها غنيمة باردة، وهي لا تريد أن تسعى بنفسها وتتناول طعامها بجدّها. فقلت: يا للعجب! أبلغت الأنانية إلى هذا الحدّ؟ وأمسكت بالكبيرة وقلت لها: أيتها الأخت، الأرض فسيحة والحب كثير، فلم لا تتناولين بغيتك بنفسك؟ فضحكت وقالت: ولِمَ خلق الصغار؟ قلت: خُلقن للسبب الذي خُلق من أجله الكبار. قالت وقد رفعت رأسها متعالية: وما هو؟ قلت: السعي، قالت هذه فلسفة جديدة ماعرفتها من قبل، قلت: ولم خلقن إذن أيتها العزيزة؟ قالت: خلق الصغيرات لخدمة الكبيرات، قلت: في كلّ الحالات؟ قالت: أجل، قلت: ولم؟ قالت لأننا نشأنا على هذا؛ فهل يصح أن أشقى في صغري وأبلو قسوة الكبيرات عليّ، ثم أشقى في كبري أيضاً بأن أسعى في طلب الرزق وحدي؟ أليس من المعقول أن أعامل الصغيرات كما عاملتني الكبيرات حين كنت صغيرة؟ أو ليس الحكم للعرف والعادة؟ قلت: رويدك أيتها الأخت، ليس الحكم للعرف والعادة، الحكم للحق وحده، فضحكت ضحكة طويلة، رنّ صداها في أعماق نفسي، وقالت: عش رجباً تشهد عجباً! وغادرتني وهي تخطر بكبرياء وصلف. كان وقع كبريائها على نفسي أبلغ وأشد من ظلمها الصغيرة؛ يا لله ما أقبح الكبرياء حين يركَّب على الظلم! إن الكبرياء في نفسه بلاء؛ فكيف إن قرن بالظلم؟

دخلنا المأوى في ذلك اليوم مبكّرين، وأخذ كلّ واحد منا مكانه المعتاد، وبعد قليل دخلت الأسرة الجديدة ففسحنا لها في المكان، ولكن واحدة منهن أبت إلّا أن تحتل مكان الزعيم، ولما وجدته قد سبقها إليه أرعدت وأزبدت، وأمرته أن يخلي المكان، فتأثر الزعيم من غلظتها، ولكنه تأدب وقال: لست أبخل عليك بمكاني، ولكني كنت أحب أن تتلطفي معي بالكلام، فصاحت قائلة: ولِمَ أتلطف بالكلام؟ أيجرؤ صغير مثلك أن يمتنع عن تلبية طلبي؟ فما سمع الزعيم كلامها حتى ثار الدم في وجهه، ولفت الحديث انتباهي فذهبت إليهما وقلت: ما الخطب؟ فأطرق الزعيم ولم يتكلَّم، فقالتْ هي: أخجله المنكر الذي ارتكبه، فاستفزه الشمم، ولكن الحياء تغلب عليه، فقال بصوت منخفض: يا أماه، أمرتني هذه الفاضلة أن أتخلى عن مكاني بألفاظ رأيتها قاسية فرجوتها أن تصلح لهجتها، فتكدّرت وأنّبتني بألفاظ جارحة، فقالت: أعصيان ووقاحة! عندئذ لم أتمالك نفسي، فقلت لها: أيتها العزيزة، رويدك، فليس ما يوجب التعنيف، فقالت: لقد خالف أمري، وتواقح عليّ، قلت: وبمَ أمرته؟ قالت: أمرته أن يخلّي المكان، قلت: ولِمَ؟ قالت: إنه مكاني، نمت فيه بالأمس، وهو يلائم صحتي ومزاجي، فهو مرتفع عن الأرض، وأنا تؤذيني الرطوبة. قلت: أما السبب الأول فلا أقرك عليه، وأما السبب الثاني فمعقول، وواجب على كلّ من في المأوى أن يقدمك على نفسه حتى تعتدل صحتك، فتتساوين. فقالت: هذا حكم ما سمعناه في حياتنا قط، وأنا كان يجب أن أقول لك إني أطلب هذا المكان لأني أكبر من هذا الفتى سناً، وأسمى منه مقاماً، وأشد منه قوة وبطشاً. قلت: أيتها العزيزة، أنت تصدرين عن مبادئ برئنا منها في مأوانا هذا، فقالت متهكمة: مبادئكم! وهل لمثلكم مبادئ يصدر عنها؟ فغضب الزعيم وتقدم إليها يريد شراً فأمسكت به وقلت له:

أيها الحبيب الزم نفسك، ولا يخرجنَّك كلامها عما ينبغي أن تتحلَّى به. فقال: طفح الكيل، فقلت: كيلك صغير أيها الحبيب؛ فعليك أن تستبدل به كيلا آخر. فابتسم ابتسامة الرضى- ويا لها من ابتسامة ساحرة من ذلك الفم العاجي!- وقال: سامحيني؛ فالرأي لك. فقلت: أيها الحبيب، أوسع لها مكانا بجانبك وغداً نسوي المسألة بينكما. فانكمش في مكانه، فقلت لها: تفضلي أيتها العزيزة، فنظرت إلى المكان بازدراء وقالت: أتريدينني أن أرضى بالتنازل عن إرادتي، ومعاناة الضيق في هذا المجلس؟ قلت: إلى غد، قالت: وليس إلى دقيقة، ودفعت الزعيم بمنكبها بعنف، واستقرت حيث تريد، وهي ترغي وتزبد، فكاد الزعيم أن يقابل القوة بالقوة، ولكني أمسكت به وقدته إلى مجلسي، وأحطت عنقه بذراعي فاستسلم...

وأسدل الليل علينا ثوباً كثيفاً، ولكني لم أغمض طرفاً؛ فقد أنفقت الليل كلّه أفكر فيما رأيت وما سمعت.

(29)

على كثرة ما فكرت طوال الليل، لم أصل إلى نتيجة حاسمة؛ فقد كانت أفكاري مشوشة، متقطعة متنقلة، فما أبدأ فكرة حتى تقفز إلى رأسي فكرة أخرى. وما أمسك طرفها حتى تنتهي إليّ فكرة ثالثة، وهكذا إلى ما لا نهاية له، وكيف يصح أن يستقيم الفكر والنفس قلقة تحاول أن تبرم أمراً خطيراً في وقت لم يخلق إلّا للراحة والسكون؟

ولما نبا بي المقام، وأضجرني سقم الأفكار، رأيت أن أترك مضجعي في الهزيع الأخير من الليل، وأخرج إلى الساحة. وجلست تحت تلك الشجرة

التي طالما كنت أجلس تحتها في الأيام الخوالي. رفعت رأسي إلى السماء، وإذا النجوم تتلألأ في القبة الزرقاء، ما من كبير وصغير، قريب وبعيد، ساكن ومتحرك. لم أستطع أن أحصر تفكيري في الموضوع الذي أرقني، لأن نجوم السماء كانت تجذب جميع أفكاري إليها. ما هذه العوالم المنتشرة في السماء؟ وكيف توزعت في أبراجها على هذه الأشكال العجيبة دون أن يزاحم بعضها بعضاً، أو أن يصدم بعضها بعضاً؟ يجب أن تكون هذه الملايين من النجوم قد تقاسمت الفضاء تقاسماً قائماً على الحكمة والعدل حتى تجنبت الصدام والزحام. إن هذه السماء بريئة من كلّ بغي وجور وخصام، وليس فيها نجم كبير يطغى على نجم صغير، وليس فيها نجم قوي يستطيع أن يستبد بنجم ضعيف...

وهذا التوزع العادل في السماء له نظيره على الأرض؛ فعالم الأزهار الذي شاهدت بعضه في أثناء خروجي مع الصغار في الأيام السابقة يقوم على نفس النظام العادل الذي تقوم عليه النجوم في السماء. فما رأيت بينها زهرة قوية تبطش بزهرة ضعيفة ولا زهرة كبيرة تطغى على أخرى صغيرة، وعلى ذلك يحق لي أن أسمي أزاهير الأرض نجوم السماء؛ فهي نجوم برية مختلفة الأحجام والأشكال والألوان والروائح، وهي متعة المخلوق في نهاره، وموضع نظره واعتباره، ومحل إعجابه وسروره، ومنبع وحيه وإلهامه، ومثار إيمانه واستسلامه بقدر ما هي نجوم السماء في الليل.. ولو رزقت الأزهار نوراً لأضحت نجوماً متلألئة في الأرض. ولكنها حرمت النور، وعوض لها بالألوان والعطور، والنور واللون والعطر أرواح ثلاث؛ سرها في علم خالقها.

كان ينبغي للمخلوق أن يستلهم من السماء والأرض نظام عيشه، فيستقر

كلّ مخلوق في المكان الذي كتب له، ويجري كلّ مخلوق على السنن التي قدرت له، ويعرف كلّ مخلوق حدوده دون أن يلتجئ إلى بغي أو عدوان، ولكن ما أعجب المخلوقات! فإنها تستكبر على سائر ما خلق الله في كونه الواسع الذي لا حدّ له؛ فتضع العمالقة الجبابرة نفسها في المرتبة الأولى لما أنعم عليها من بسطة في العقل، ثم تضع الحيوانات العجماوات في المرتبة الثانية لزعمهم أنها حرمت نعمة العقل والنطق، وتضع النباتات في المرتبة الثالثة، والجمادات في المرتبة الرابعة؛ ترى أكانوا عادلين منصفين في تقسيمهم؟ أم طغوا وجاروا؟ إنا إذا اعتبرنا هذه المخلوقات من حيث تنفيذ المشيئة الإلهية في تحقيق العدل والسلام والتعاون لاقتضى أن يُعكس هذا الترتيب؛ فنبدأ بالجماد فالنبات فالحيوان فالعمالقة، لأن العمالقة الذين تميزوا بزعمهم بالعقل انحطوا عن عالمي النجوم والنبات بما أفسدوا في الأرض، وبما اخترعوا من أضاليل وأوهام، وبما سلكوا من معوج السبل، وبما ارتكبوه من آثام وأخطاء؛ لقد ثبت أن عقل العمالقة المأفون أضعف من قوة الفطرة، وما عليهم، إن أرادوا صلاح أنفسهم حقاً، إلا أن يتركوا عقولهم المأفونة جانباً، وأن يستسلموا للفطرة، فهي أرشد إلى الصواب والحق.

وجهت بصري إلى السماء أستلهم سداد الرأي في المشكلة التي كوت جفوني بالأرق، فإذا النجوم قد غارت وإذا نجم واحد قد ثبت في مكانه في المشرق؛ هذا نجم الصباح ثبت في مستقره يشيّع إخوانه جميعاً بابتسامة الإيناس إلى حين يلقاهم في المساء.

أكسبني طول النظر في النجم الفريد تجمع شتات أفكاري، فقد كانت متشعبة مع النجوم، فارتدت الآن موحدة إلى مكانها من عقلي، فأخذت

أستعرض ماضيَّ القديم حلقة حلقة، وطوراً طوراً.

لقد نشأت في بيئة ريفية أستمتع بالهواء الطلق، والأرض الفسيحة، ألتمس غذائي بنفسي، وأجمع الحب بعرق جبيني، فاكتسبت حرية الحركة، وصفاء الذهن وسذاجة القلب، ونقاء الضمير؛ كانت حياتي في تلك البيئة متمشية مع الفطرة الأولى، ولم يقع لي ما يخدشها أو يفسدها، وكانت الطبيعة التي عشت فيها مؤيدة لنوازع الفطرة، فشببت على الصراحة والصدق والثقة بالنفس والحب والإخلاص، ثم انتقلت إلى هذا المأوى فتمتعت مدة من الزمن بحب زوجي وعطفه، واستمتعت بحياة مترفة، طعامها كثير، وماؤها غزير، ولكني حرمت حياة الطبيعة الحرة، واصطدمت مبادئي التي نشأت عليها بمبادئ أترابي، فخاصمنني وائتمرن بي وتحالفن ضدي، وخرجت مبادئي سالمة، ولكن نعمة صداقتهن لم تتم إلّا بعد أن فجعت بزوجي الصالح، فاجتمع عليّ السرور والحزن في آن واحد، ثم جاءت تِرْبي ذات الوجه الغريب، واتصلت بعشيرتها عن طريق الإحسان، ثم عادت إلى عشيرتها، فكانت عودتها أقوى شاهد على أن الظفر للفضيلة، ثم رزقت تِرْبي العاقلة أولاداً فتحوا لي باباً جديداً إلى عالم الكفاح في سبيل المثل العليا، فبنيت آمالاً وأحلاماً، وحسبت الدهر قد أقبل معوّضاً أحسن العوض، وما كدت أجني ثمار الحياة الجديدة حتى فجعت بأترابي العزيزات، فتذرعت بالصبر والإيمان، ثم تعلق قلبي بحب الزعيم، وتعرضت لصراع عنيف بين عقلي وقلبي، وفيما أعاني أهوال الصراع، وألتمس الفرج من أشد فتنة بلوتها في حياتي، فوجئت بقدوم أسرة غريبة تجمّعت فيها مساوئ المجتمع ورذائل البيئة الفاسدة، وأنا الآن أبلو محنة لا تقل هولاً عن تلك الفتنة، ولكني منفردة في فتنتي،

ونتائجها تتعلق بنفسي، أما المحنة فعامة البلوى ومصائرها تتناول الأعزاء جميعاً.

إن حياتي قد ساقها القدر في طريقي تستقيم تارة وتعوج تارة أخرى، ولم يكن لي خِيَرَة في السير، وهكذا حياة المخلوقات جميعاً تعلو حيناً وتنخفض حيناً آخر، وهم أضعف من أن يتملكوا زمام أنفسهم. ولكنّ هناك شيئاً واحداً استطعت أن أتمكن منه وأن أخضعه لمشيئتي التامة، وهو: مبادئي السامية التي استلهمتها من فطرتي الأولى، وسألتزم مبادئي هذه ما حييت، لأني غير مسؤولة عن حوادث الدهر، ولكني مسؤولة عن مبادئي، وستذهب حياتي مع الذاهبين، وسينقضي العمر مع الأعمار، وسأصبح يوماً من الأيام حفنة من تراب، وسأصبح منسية مع الزمن، ولكن ما يجوز عليَّ لا يجوز على مبادئي، لأنها ستكون ميراث الأجيال بعدي، وستخلد على الدهر، وسيذكرها الناس في كلّ عصر مع ما يذكرون من تراث القدامى، الذين وهبوا أنفسهم للمثل العليا والمبادئ الفاضلة. إن الجسم وما يتبعه من مطامع وشهوات وأهواء مصنوع من مادة، والمادة إلى فناء؛ أما النفس الخيرة الفاضلة، وما يتبعها من مبادئ شريفة وأفكار سامية ومثل عليا فليست مصنوعة من مادة، وإنما هي نفحات إلهية خالدة على الزمن.

وما شعرت وأنا سابحة في لجة الفكر إلّا بيد رفيقة تربت على كتفي فالتفت مذعورة، وإذا بيد الزعيم... فاستبشرت بوجهه الصبوح خيراً، وقمت معه وأنا مؤمنة بأن تاريخي الذي استعرضته لن يشوّهه، وأني لن أخطئ التوفيق في هذه المرة أيضاً...

(30)

سرت مع الزعيم وتبعنا الأولاد، متجهين نحو الريف. فسرنا مجدين إلى أن بلغنا مرتفعاً من الأرض فصعدنا فيه، وجلسنا في حلقة كبيرة توسطتها، وأجلست الزعيم إلى يميني. وبعد أن استرحنا قليلاً قلت للزعيم: إني آسفة لما وقع في الليلة الماضية.. فقال: لقد وضعت في مأزق حرج اضطرني أن أخرج عن حدود الأدب. فقلت: وماذا عزمت أن تفعل؟ فقال: لا يمكن للمأوى أن يتسع لنا جميعاً، ويعزّ عليّ أن أغادر المأوى الذي نشأت فيه لأخليه لهذه الأسرة الطارئة، ونحن بين أمرين: إما أن نتنازل عن مأوانا، أو أن نتمسك به ونطرد الغريبات منه، والواجب يقضي أن تعود الأسرة من حيث أتت. فصاح الأولاد: هذا حق، وليس فينا واحد يهون عليه أن يفرّط في مسقط رأسه. فقال الزعيم: إذن نحن متفقون، ويجب أن نعود حالاً وننفّذ الخطة. وتحرك الأولاد يهمون بالعودة فقلت: رويدكم أيها الأعزاء؛ أتظنون أن الأسرة تخضع لرأيكم وتغادر المأوى؟ فقال الزعيم: إن لم تغادره طوعاً غادرته كرهاً، وقال أحد الأولاد: لقد امتنعنا عن الانتقام من العمالقة خشية أن يبطشوا بنا، لأنهم أشدّ قوة منا، وليس الحال كذلك الآن. فقلت: وإن نشب بينكم قتال فماذا تفعلون؟ فقال الزعيم: إن حملنا على الشر ركبناه. قلت: إذن تلتجئون إلى القوة، قال: نعم، قلت: إذن تؤيدون سلطان القوة، وتحكّمونه فيما يشجر بين المخلوقات من خلاف؟ فقال الزعيم: لسنا مسؤولين عن الخلاف، فقد سببته الأسرة، والشر بالشر والبادي أظلم. قلت: وإن وقع خلاف آخر مع فريق أشد منكم قوة، فماذا تفعلون؟ فنظر الأولاد بعضهم إلى بعض متسائلين، ثم

قال الزعيم: ندافع دفاع المستميت، فإن تغلبنا ظفرنا، وإن غلبنا متنا في سبيل الواجب. فقال آخر: لو وقع لغيرنا من المخلوقات ما وقع في مأوانا فماذا يجري؟ لنسترشد بتجارب غيرنا. فقال الزعيم: هذا حق، ثم التفت إليّ قائلاً: أخبرينا أيتها العزيزة ماذا يجري؟ قلت: يلتجئون إلى القوة كما تريدون أن تفعلوا، فقالوا: إذن نفعل كما يفعل غيرنا. فقال الزعيم: إذن لا يصح أن نلام؛ فنحن أولاً ندافع عن حق لا شبهة فيه، وثانياً نرد ظلماً حل بنا، وثالثاً نفعل ما يفعل غيرنا في مثل حالنا، ورأيت قوله مصيباً ولكنه لا يحل الخلاف، ولا يلتئم مع المثل العليا التي تمسكت بها طوال حياتي؛ فأنا التي قاومت البغي وحكم القوة، وكرهت الكبرياء كيف أسلم الآن حل هذه القضية للقوة؟ قلت لهم: ألا تريدون أن يحتكم الحق في قضيتكم دون القوة؟ قالوا: بلى. قلت: إذن لا ينبغي أن تلتجئوا إلى القوة. قال الزعيم: وإذن ماذا نفعل؟ قلت: إذن ليس لكم إلّا أن تنتشروا في هذه الأرض، وتبشروا الخلق بالخضوع للحق وحده، وتقنعوا الباغي بأن بغيه يرديه. وعندئذ تحلون قضية عامة إنما قضيتكم جزء منها. ليذهب كلّ واحد منكم إلى بقعة من بقاع الأرض وليوقف نفسه على نشر العدل والمساواة والمحبة بين الخلق جميعاً، ولتكن نفسه أصلب من الصخر فلا تلين ولا تستسلم، لتزدكم المصاعب قوة، والمهالك ثقة بمبادئكم، والمقاومة إيماناً بالظفر، قد يستهزئ بعض الخلق بكم وبمبادئكم، وقد تجدون أنفسكم منفردين في مسعاكم، فلا يردنكم ذلك عن تحقيق قصدكم. إن العالم يعيش في لجج من الضلال، وإن قضايا الظلم والبغي والعدوان تتكرر في كلّ يوم، ولكن الخلق مهيؤون لتحكيم مبادئ الفطرة القائمة على المحبة والعدل والمساواة، وإن لم تفلحوا فستفلح مبادئكم على أيدي أعقابكم،

أو أعقاب أعقابكم.

هناك ضلالات يجب أن تسلّوها من صدور الخلق بالرفق والحكمة، وهذه الضلالات هي منابع ما بلوتم ويبلو غيركم من مظالم لا عدّ لها، ومن هذه الضلالات التي يتردّى فيها الخلق، أن المخلوق معرّض للجوع، ولذلك يجب عليه أن يجمع معاشه عن أي سبيل من السبل، والواقع أن هذه ضلالة كبرى؛ فليس في الكون معدة تعاني الجوع حقاً، إلّا إن كانت لمسنّ أو مريض أو فقير أو صغير، وإنه لعار على الخلق أن يعاني هؤلاء فراغ المعدة. ولكن هؤلاء قليلون، بل يكادون يكونون في حكم النادر، ومجموع الخلق لا يعدم وسيلة لملء معدته، ولكنهم يتوهمون تعرضهم للجوع فيشتد جزعهم، ويرتكبون في سبيل إبعاد شبح الجوع الموهوم آثاماً ومنكرات هي مصدر شقاء العالم، فيسلب القويّ مال الضعيف، والكبير مال الصغير، وحين يتعرض الصغير والضعيف للظلم تثور في نفسيهما أحقاد تدفعها إلى ارتكاب الظلم، وبذلك يورث الظلم ظلماً والشرّ شراً.

ومن ضلالتهم أن الفرد يستطيع أن يستمتع بالسعادة منفرداً عمن حوله من المخلوقات، وبتأثير هذا الوهم يسرق اللص مال غيره، ويلتجئ النذل إلى الخيانة، ويتوسل الدنيء بالكذب أو النفاق أو الاحتيال، وهكذا يستقلّ كلّ فرد باتباع السبيل الذي يجلب له السعادة الموهومة، دون رعاية لما تنتجه آثامه هذه من شقاء عام للمجموع، ولو اعتمد كلّ مخلوق على عمله، وكسب رزقه بعرق جبينه، وترفع عن خداع غيره أو ظلمه أو خيانته لاستمتع المجموع بالحب والتعاون والإخاء حقاً.

ومن ضلالاتهم أن المادة هي سبيل السعادة الوحيد؛ فمن كثر ماله كثرت سعادته، وهذه ضلالة من أخطر الضلالات على المخلوقات؛ فالمادة ما كانت ولن تكون مصدر السعادة، قد تكون مصدر نعيم جسمي آنيّ لبعض المخلوقات، ولكن أكثر الذين تتضخم أموالهم إنما يجمعون المادة لمجرد حبهم إياها، ومن أحبّ شيئاً استهان بجميع الوسائل الشريفة في سبيل إحرازه، وبذل كرامته ومروءته في سبيل الاحتفاظ به.

ومن ضلالاتهم أن النصر حليف القوة، فيتخذونها وسيلة لقضاء حقوقهم، وحل قضاياهم، والقوة ضدّ الحق، لأنه إن وجد الحق أصبح لا حاجة للقوة، فأفهموا من يتظاهر بالقوة أن قوته لا تدوم، وأن الذي يدوم هو الحق وحده، وأن الاعتماد على القوة إعزاز لسلطانها، وأنه إن استعمل سلطان القوة تردَّى الخلق في أكبر ضلالة في الوجود؛ فكلّ قوي فوقه أقوى منه، ومن التجأ إلى القوة حيناً ألجئ إليها حيناً آخر، ومن صرع بقوته يوماً صرعته قوة غيره يوماً آخر.

هذه هي أيها الأعزاء وأمثالها ضلالات تتحكم في الخلق، فإن استطعتم أن تنتزعوها من صدورهم انقطعت أسباب البغي والخصام وجميع المساوئ التي بلوتم بأنفسكم بعضها. هذا هو السبيل الوحيد للانتقام ممن وتركم في أمكم وصديقاتكم، وممن نغّص حياتكم في مأواكم.

ولكن لا يقدم على مقاومة هذه الضلالات إلّا من وهبه الله عزماً وحزماً وإيماناً وثقة، لأنه سيبلو في أثناء مقاومته صراعاً عنيفاً، وكيداً شديداً فإذا تعرض أحدكم لذلك- وهو لابدّ متعرض- فليذكر أن هذا الذي

يتعرض له إنما هو نتيجة للضلالات التي يحاربها. ولتزددْ مقاومته بازدياد قوة خصمه، وليجاهد بلسانه وماله ونفسه إلى أن يظهر بنشر مبادئه.

أيها الأعزاء، إن حياة الفرد جزء من حياة المجموع، فإذا سعد المجموع سعد الفرد بسعادته، وإذا شقي المجموع شقي الفرد بشقائه. وحياة المخلوق في نفسها أشبه بثانية في حياة الخليقة أو أقل، فانظروا إلى هذا الزمن ما أقله وما أحقره! ولكن هذه اللحظة أو ما هو أقل من لحظة قد تقدر في حياة المخلوقات بسنوات أو قرون، إن وهبت لخير العالم وصلاحه. إن العالم الذي يتردّى في الشقاء كالليلة الحالكة الظلام؛ فالشرارة الصغيرة تحدث فيها نوراً عظيماً، وكذلك النفس المصلحة التي تبعث في وسط الشقاء العالمي، تحدث فيه نوراً عظيماً، فكونوا أنتم تلك النفوس. سيحوا في الأرض، وتوزعوا بين الخلق، وانشروا بينهم المثل العليا، والمبادئ السامية، وإني لواثقة بأنّا سنلتقي في مأوانا هذا بعد أن نطهّر العالم أجمع - لا وطننا الصغير فحسب- من هذه الضلالات.

وإني لن أتخلف عنكم فسأعمل كما تعملون، ولكني عاهدت نفسي على أن أحفظ حرمة ذلك المأوى الذي أودعت فيه جثمان زوجي، وشاهدت فيه نموّ مبادئي، فسأعود إليه وأصلح حال الأسرة التي هبطت عليه، وسأذكركم ما حييت، فاذكروني أنتم ما حييتم. وليجمعنا الصراع في سبيل المثل العليا في كلّ لحظة من لحظات حياتنا، وليكن ذكرنا اشتراكنا في الجهاد مبعث قوة ونشاط لنا؛ أمهيؤون أنتم للعمل؟ فصاحوا جميعاً بصوت واحد: نعم. فقلت: إذن هيا وانبعثوا في الأرض!

ويالها من لحظة رهيبة أخذت فيها أقبِّل الأعزاء واحداً واحداً قبل أن يسلك كلّ سبيله في الأرض، ولما جاء دور الزعيم وقعت عيناي على عينيه ووقفتا لحظات لا تريمان عن مركزهما فرأيت في عينيه مستقبل آمالي وأحلامي، بعد أن كنت أرى فيهما شهوة نفسي، وكان الزعيم آخر من شيعت ورأسي مرفوع وقلبي مطمئن، ونفسي راضية.

ثم جمعت نشاطي ويممت شطر المأوى، وفي نفسي نغمة ما فتئت تتردّد حتى بلغته؛ تلك هي: إلى اللقاء.. إلى اللقاء...

صدر من سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمّة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو

41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى
74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلَاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِطافٌ (مُختَارَات مِن اَلْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ فِي قَطَر)	مجموعة من الكتاب
78	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (الجزء الأول)	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
79	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (الجزء الثاني)	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

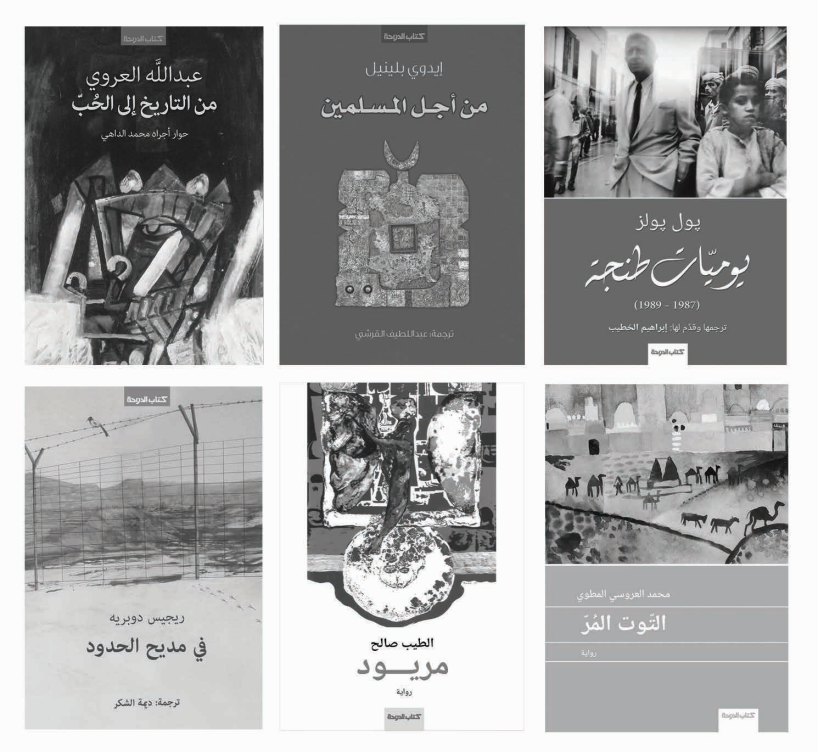

هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت في بيتي، ووقع بينها وبيني إلفة ومحبة؛ فكنت أطعمها بيدي وأرقب حياتها يومًا فيومًا. والأحداث التي ترويها وقعت لها بالفعل، وهي لا تتجاوز المألوف في حياة الدجاج، ولو قدِّر لصديقتي الدجاجة أن تتكلم بلغة الأناسيّ لما قالت غير ما تقرأ؛ فأنا- في الواقع- أترجم لك ما أوحت به إليَّ. أما عنصر الخيال فيها فضئيل، وهو لا يعدو أن يكون تعليقًا على هامش الحياة أو تحليقًا في عالم المُثل العليا.

إسحق موسى الحسيني

القدس/ يوليو 1943

www.aldohamagazine.com